الحاجب المنصور

تأليف

عبد السلام أحمد الرفاعي

المتخرج فى دار العلوم والمدرس بالمدارس الابتدائية

الطبعة الأولى

١٣٥٤ هـ — ١٩٣٦ م

المطبعة الرحمانية بمصر

بالخرنفش نمرة ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢

الحاجب المنصور

تأليف

عبد السلام أحمد الرفاعي

المتخرج فى دار العلوم والمدرس بالمدارس الابتدائية

الطبعة الأولى

١٣٥٤ هـ — ١٩٣٦ م

المطبعة الرحمانية بمصر

بالخرنفش نمرة ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢

اهداء الكتاب

إلى الطالب النجيب والزعامة الناشئة ، أهدى هذه الشخصية الجريئة والعبقرية الفذة ، التى استطاعت أن تنال بالحزم والعزم ماتعجز عنه الكتائب إلى محمود افندى السيد حسنين أبو يوسف أهدى كتاب الحاجب المنصور محمد ابن أبى عامر ؟

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

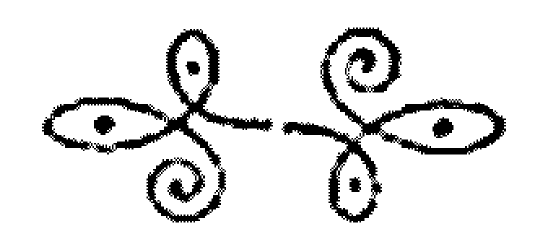
الحمد لله المنفرد بعزته ووحدانيته ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وأنصاره وأزواجه وذريته وعترته ، أما بعد فهذا بحث فى محمد بن أبى عامر وزير بنى مروان فى الأندلس وحاجبهم أزفه إلى القراء راجياً أن يكون للناشئين حافزاً إلى الجد والعمل وللساسة والحكام نبراساً به يستضيئون وعلى نهجه يستوضحون فما كان منه عملا محمود العاقبة فعلوه وما كان وخيم النهاية جانبوه حتى يصلوا بالبلاد إلى الغاية المنشودة إن شاء الله . وإنه إن لم يكن وافياً بمثل ابن أبى عامر وعبقريته فإنه فاتح لأرباب الدراسات المستفيضة باباً ، شاف للكثيرين غلة وبه أردت الخير والله العاصم من خطأ الغاية وضلال السبيل وهو حسبى وبه أستعين .

المقدمة الأولى

فى مجمل تاريخ الأندلس

بعد أن تم لموسى بن نصير فتح أفريقية وعلم أن فى أسبانيا أمورا داخلية تشغل لزريق ملك القوط أرسل طارق بن زياد فى سبعة آلاف من أهل المغرب فعبر المضيق المسمى باسمه وتقدم فى داخل البلاد حتى التقى مع جيش قوطى يقوده لزريق فبدده ودانت له البلاد بعد موت مليكها ، ومن ثم كتب موسى إلى الخليفة الأموى بدمشق يبشره بالفتح ، وواصل طارق بجيوشه فتوحاته ولحق به موسى وتمم معه فتح البلاد ، وصارت الولاة تعين على الأندلس من قبل بنى أمية فى الشرق حتى سقطت دولة الأمويين وقامت دولة بنى العباس ، وفر من وجه العباسيين عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الداخل صقر قريش إلى بلاد الغرب واستطاع بهمته وذكائه أن يؤسس فى الأندلس دولة أموية ويقضى على منافسيه ، وقد توالت بعده الخلفاء من أولاده وأحفاده حتى كان سابع الخلفاء الأمويين عبد الرحمن الناصر فابتسمت الدولة فى عهده وخمدت نيران الثورات وعاد التيار

إلى مجرى التقدم ، وارتد الأسبان المغيرون على الشمال ، والفاطميون الذين يهددون الجنوب ، وامتلأت خزانة الدولة بالأموال ومات الناصر بعد أن ترك لابنه الحكم دولة قوية استمرت حافظة قوتها فى عهده . ولكن الحكم جعل ولاية العهد لابنه هشام الطفل الصغير فاستطاع الوزراء والحجاب أمثال المصحفى وابن أبى عامر أن يعبثوا بنفوذ الخليفة ويستولوا على مقاليد الأمور .



المقدمة الثانية

فى الحجـــاب

إذا رسخ عز الملك وصار إلى الانفراد بالمجد واحتاج إلى العزلة عن الناس ، والتحدث إلى أوليائه فى خواص شئونه طلب الانفراد من العامة ما استطاع ، واتخذ الإذن ببابه وجعل لذلك الغرض حاجبا وإذ ذاك يصير لصاحب الملك خلق غريب يحتاج إلى مدارسة ، ومعاملة بما يجب له ، وينبرى لدراسة هذا الخلق ، والدراية بهذه الآداب الخواص من أوليائه ويحجبون غيرهم عن لقائه ممن لا علم لهم بهذه الرسوم حفظا عليهم من سخط الملك وعقابه وعليه من سماع ما يغضبه .

وقد كان الأكاسرة يتخذون الحجاب . يدلنا على ذلك ماورد من أن غيلان بن سلمة قدم على كسرى وجلس ببابه حتى أذن له فدخل عليه وبينهما شباك من ذهب فخرج إليه الترجمان وقال له : يقول لك الملك : ما أدخلك بلادى بغير إذنى فقال : قل له لست من أهل عداوة لك ولا أتيتك جاسوسا لضد وإنما جئت بتجارة وإنه ليتكلم إذ سمع صوت كسرى فسجد فقال له الترجمان : يقول

لك الملك لم سجدت ؟ فقال سمعت صوتا عاليا حيث لا ينبغى لأحد أن يعلو صوته إجلالا للملك فعلمت أنه لم يقدم على رفع الصوت هناك غير الملك فسجدت إعظاما له ـ وعن الأكاسرة نقله المناذرة وملوك الحيرة فقد جاء أن الحارث بن حلزة عند ما أنشد قصيدته المعلقة : آذنتنا ببينها أسماء : بين يدى عمرو بن هند وكان بينه وبين الملك حجب ، جعل الملك يرفعها واحدا واحدا حتى قربه وأدناه .

وقد حصل الحجاب فى الإسلام لعهد معاوية وعبد الملك وخلفاء بنى أمية وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم حاجبا ثم لما جاءت دولة بنى العباس وجدت من الترف والعز ما هو معروف وكملت خلق الملك على ما يجب فدعا ذلك إلى الحجاب الأشد منعة وصار اسم الحاجب أخص به وصار بباب الخلفاء داران دار للخاصة ودار للعامة . ثم حدث فى الدول حجاب ثالث أخص من الأولين وهو عند محاولة الحجر على صاحب الملك وذلك أن الخاصة إذا أقاموا أبناء الملوك على العرش صغارا وحاولوا الاستبداد عليهم فأول عمل يقومون به حجز بطانتهم عنهم وإقصاء أخص أوليائهم عن مجلسهم بعد أن يوهموهم أن الاتصال بهم خرق لسياج الهيبة وإزالة للوقار والخشية من قلوبهم ويعوده المستبد عليه السكون إلى أخلاقه والرقص على وتره حتى لا يستبدل به سواه إلى أن يستولى عليه وهذا النوع من الحجاب

لا يكون فى الغالب إلا فى أواخر الدولة ويكون دليلا على هرمها وسببه ولاية صغير أو مضعّف من أهل بيت الملك يترشح للولاية بعهد أبيه أو بترشيح ذويه ويرى منه العجز عن القيام بالملك فيقوم كافله من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه أو قبيله ويوهمه أنه يحفظ أمره عليه حتى يؤنس منه الاستبداد ويجعل ذلك ذريعة للملك فيحجب الصبي عن الناس ويعوده اللذات التى يدعوه إليها ترف أحواله ويسيمه فى مراعيها متى أمكنه وينسيه النظر فى الأمور السلطانية حتى يصبح مؤمنا بأن حظ السلطان من الملك إنما هو جلوس السرير وإعطاء الصفقة (١) وخطاب التهويل والقعود مع النساء خلف الحجاب وأن الحل والربط والأمر والنهى ومباشرة أعمال الدولة وتفقدها إنما هو للوزير ويسلم له فى ذلك إلى أن تستحكم له صبغة الرياسة والاستبداد ويتحول الملك إليه ويؤثر به عشيرته وأبناءه من بعده كما وقع لبنى بويه والترك وكافور الإخشيدى وغيرهم بالمشرق وللمنصور بن أبى عامر بالأندلس .

الحاجب المنصور

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الملك بن عامر بن أبى عامر المعَافرى (٢) من أهل قرطبة وأصل والده من الجزيرة

(١) إمضاء البيع (٢) معافر أبو حى من همدان

الخضراء ويكنى أبا حفص سمع الحديث وكتبه عن محمد بن عمر ابن لبابة وأحمد بن خالد ومحمد بن فطيس وغيرهم ورحل إلى المشرق فأدى فريضة الحج وكان من أهل الخير والدين والصلاح والزهد والقعود عن السلطان أثنى عليه الراوية أبو محمد [1] الباجي وقال كان لي خير صديق أنتفع به وينتفع بي وأقابل معه كتبه وكتبي ومات منصرفه من حجه ودفن بمدينة طرابلس وقيل بموضع يقال له رقادة وكان ذلك في آخر خلافة عبد الرحمن الناصر فنشأ ابنه محمد هذا يتيما وورد شابا على قرطبة طالبا للعلم والأدب وسماع الحديث فبرع فيها وتميز ثم اقتعد دكانا عند باب القصر يكتب فيه لمن يعن له كتب من الخدم والمرافعين للسلطان إلى أن طلبت السيدة صبح أم المؤيد من يكتب عنها فعرفها به من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر فترقى إلى أن كتب عنها فاستحسنته ونبهت عليه الحكم ورغبت في تشريفه بالخدمة فولاه قضاء بعض المواضع فظهرت منه نجابة فترقى إلى الزكاة والمواريث بأشبيلية ثم نقله الحكم من خطة القضاء إلى الوزارة لولده هشام ولما مات الحكم الذي كان مع فضله قد استهواه حب الولد حتى خالف الحزم في توريثه الملك بعده فتى في سن الصبي عادلا عن مشيخة الأخوة وفتيان العشيرة ومن كان ينهض

---

(١) هو عبد الله بن محمد وباجة بلد بافريقية

بالأمر ويستقل بالملك قام جؤذر وفائق فتياه فأخفوا موته وعزما على صرف البيعة إلى أخيه المغيرة وكان فائق قد قال إن هذا الأمر لا يتم لنا إلا بقتل جعفر المصحفى فقال جؤذر : ونستفتح أمرنا بسفك دم شيخ مولانا . فقال له : هو والله ما أقول لك ثم بعثا إلى المصحفى ونعيا إليه الحكم وعرفاه رأيهما فى المغيرة . فقال لهما المصحفى وهل أنا إلا تبع لكما وأنتما صاحبا القصر ومدبرا الأمر فشرعا فى تدبير ما عزما عليه وخرج المصحفى وجمع أجناده وقواده ونعى اليهم الحكم وعرفهم مقصد جؤذر وفائق فى المغيرة وقال إن بقينا على ابن مولانا كانت الدولة لنا وإن بدلنا استبدلنا فقالوا الرأى رأيك فبادر المصحفى بإنفاذ محمد بن أبى عامر مع طائفة من الجند إلى دار المغيرة لقتله فوافاه ولا خبر عنده فنعى إليه الحكم أخاه فجزع وعرفه جلوس ابنه هشام فى الخلافة فقال أنا سامع مطيع فكتب إلى المصحفى بحاله وما هو عليه من الاستجابة فأجابه المصحفى بأن اقبض عليه وإلا وجهت غيرك ليقتله فقبض عليه محمد ثم قتله خنقا واستوثق الأمر لهشام ابن الحكم عاشر ملوك بنى أمية بالأندلس فافتتح المصحفى أمره بالتواضع والسياسة واطراح الكبر ومساواة الوزراء فى الفرش وكان ذلك من أول ما استحسن منه وتوفر على الاستئثار بالأعمال والاحتجان للأموال وعارضه محمد بن أبى عامر وأخذ معه بطرفى نقيض

المنصور والمصحفى

مما أعين به المنصور على المصحفى ميل الوزراء إليه وإيثارهم له عليه وسعيهم فى ترقيه وأخذهم بالعصبية فيه فلما اصطفى الحكم المستنصر بالله جعفر بن عثمان واصطنعه حسدوه وذموه وانحرف عنه آل أبى عبيدة وآل شهيد وآل فطيس من الخلفاء وأصحاب السدانة وكانوا فى هذا الوقت أزمة الملك وأحظوا محمد بن أبى عامر مشايعة وشادوا بناءه وعند التئام هذه الأمور لابن أبى عامر استكان جعفر بن عثمان المصحفى وأيقن بالنكبة وزوال الحال وكف عن اعتراض محمد وشركته فى التدبير وقوى محمد على أمره بنظره فى الوكالة وخدمته للسيدة صبح أم هشام وكانت حاله عند جميع الخدم أفضل الأحوال بتصديه لمواقع الإرادة ومبالغته فى تأدية لطيف الخدمة فأمرت أم الخليفة جعفرا بألا ينفرد عنه برأى وكان هذا كثيرا ما يسكن إلى الثقة بمحمد فامتثل أمر الملكة وأطلع محمدا على سره وبالغ فى بره وبالغ محمد بن أبى عامر فى مخادعته وإظهار النصح له فوصل المصحفى يده بيده واستراح إلى كفايته وابن أبى عامر يمكر به ويضرب عليه ويغرى به ويناقضه فى أكثر ما يعامل به الناس ويقضى حوائجهم وبينما كان المصحفى يحتجن الأموال ويبالغ فى الجباية ألغى محمد ضريبة الزيت وخفف كثيراً من الضرائب الأخرى وحمل الحاجب

المصحفى على نكبة الصقالبة وخصيان القصر وخدمه فنكبهم وأخرجهم من القصر وكانوا ثمانمائة . وجاشت النصرانية بموت الحكم وخرجوا على أهل الثغور فوصلوا إلى باب قرطبة ولم يجدوا عند جعفر المصحفى غناء ولا نصرة وكان مما اتخذه حيال ذلك أن أمر أهل قلعة رباح بقطع سد نهرهم لما تخيله من أن فى ذلك النجاة من العدو ولم تقع الحيلة لأكثر منه مع وفور الجيوش وجموم الأموال وكان ذلك من سقطات جعفر فأنف ابن أبى عامر من هذه الدنية وأشار على جعفر بتبديد الجيش بالجهاد وخوفه سوء العاقبة فى تركه وأجمع الوزراء على ذلك إلا من شذ منهم واختار ابن أبى عامر الرجال وتجهز للغزاة واستصحب مائة ألف دينار ونفذ بالجيش ودخل على الثغر الجوفى ونازل حصن الحامة ودخل الربض [١] وغنم وقفل فوصل الحضرة بالسبي بعد اثنين وخمسين يوما فعظم السرور به وخلصت قلوب الأجناد له واستهلكوا فى طاعته لما رأوا من كرمه وحكمته

المصحفى وغالب والمنصور

وكان بين المصحفى وغالب صاحب مدينة سالم وشيخ الموالى وفارس الأندلس عداوة عظيمة ومباينة شديدة ومقاطعة مستحكمة وأعجز المصحفى أمره وضعف عن مباراته وشكا ذلك إلى الوزراء

(١) الربوض الكثيرة الأهل من القرى الجمع ربض.

فأشاروا عليه بملاطفته واستصلاحه وشعر بذلك ابن أبى عامر فأقبل على خدمة غالب وتجرد لإتمام إرادته ولم يزل على ذلك حتى خرج الأمر بأن ينهض غالب إلى تقدمة جيش الثغر وخرج ابن أبى عامر إلى غزوته الثانية واجتمع به، وتعاقدا على الإيقاع بالمصحفى وقفل ابن أبى عامر ظافرا غانما وبعد صيته فخرج أمر الخليفة هشام بصرف المصحفى عن المدينة وكانت فى يده يومئذ وخلع على ابن أبى عامر ولا خبر عند المصحفى وملك ابن أبى عامر الباب بولايته للشرطة وأخذ على المصحفى وجوه الحيلة وخلاه وليس بيده من الأمر إلا أقله وكان ذلك بإعانة غالب له وضبط المدينة ضبطا أنسى به أهل الحضرة من سلف من الكفاة وتولى السياسة وانهمك ابن أبى عامر فى صحبة غالب ففطن المصحفى لتدبير ابن أبى عامر عليه فكاتب غالبا يستصلحه وخطب أسماء بنته لابنه عثمان فأجابه غالب إلى ذلك وكادت المصاهرة تتم له وبلغ ابن أبى عامر الأمر فقامت قيامته وكاتب غالبا يخوفه الحيلة ويهيج حقوده وأثار عليه أهل الدار فصرفوه عن ذلك ورجع غالب إلى ابن أبى عامر فأنكحه البنت المذكورة وتم له العقد فى المحرم سنة سبع وستين وثلثمائة هجرية فأدخل السلطان تلك البنت إلى قصره وجهزها إلى محمد بن أبى عامر من قبله فظهر أمره وعز جانبه وكثر رجاله وصار جعفر المصحفى بالنسبة

إليه كالعدم واستقدم السلطان غالبا وقلده الحجابة شركة مع المصحفى وأدخل ابن أبي عامر على ابنته ليلة النيروز وكانت أعظم ليلة عرس فى الأندلس . وأيقن المصحفى بالنكبة وكف عن اعتراض ابن أبى عامر فى شيء من التدابير وابن ابى عامر يسايره ولا يظاهره وانفض عنه الناس وأقبلوا على ابن أبى عامر إلى أن صار المصحفى يغدو وحده إلى قصر قرطبة ويروح وليس بيده من الحجابة سوى اسمها وعوقب المصحفى باعانته على ولاية هشام وقتل المغيرة .

نكبة المصحفى

قال محمد بن اسماعيل وقفت للمصحفى فى طريقه من قصره أيام نهيه وأمره أروم أن أناوله قصة كانت به مختصة فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة لكثافة موكبه وكثرة من حف به وأخذ الناس السكك عليه وأفواه الطرق داعين ومارين بين يديه وساعين حتى ناولت قصتى بعض كتابه الذين نصبهم جناحى موكبه لأخذ القصص فانصرفت وفى نفسى ما فيها من الشرق بحاله والغصص فلم تطل المدة حتى غضب عليه المنصور واعتقله ونقله معه فى الغزوات واحتمله . وقال : رأيته يساق إلى مجلس الوزارة للمحاسبة راجلا والزمع يقهره والبهر قد أقصر خطاه فسمعته يقول :« رفقا بى فستدرك ماتحبه وتشتهيه وترى ما كنت

ترتجيه ويا ليت أن الموت يباع فأغلى سومه حتى يرده من أطال عليه حومه .

لا تأمنن من الزمان تقلبا إن الزمان بأهله يتقلب

ولقد أراني والليوث تخافني فأخافني من بعد ذاك الثعلب

حسب الكريم مذلة ومهانة أن لا يزال إلى لئيم يطلب

قال : « فلما بلغ المجلس جلس في آخره دون أن يسلم على أحد فلما أخذ مجلسه تسرع إليه الوزير محمد بن حفص بن جابر فعنفه وأنكر عليه ترك السلام وجعفر معرض عنه إلى أن كثر القول منه فقال له ياهذا جهلت المبرة فاستجهلت معلمها وكفرت النعم فقصدت بالأذى مقدمها فلما سمع محمد بن حفص ذلك من مقوله قال وأي أياديك الغر التي مننت بها أيد كذا أم يد كذا ودار بينهما جدال وحجاج حتى قال الوزير أحمد بن عباس قد كان بعض ما ذكرته يا أبا الحسن وغير هذا أولى بك وأنت فيما أنت فيه من محنتك وطلبك وأقبل الوزير ابن جهور على محمد ابن حفص وقال أسأت إلى الحاجب وأوجبت عليه غير الواجب أو ما علمت أن منكوب السلطان لا يسلم على أوليائه لأنه إن فعل ألزمهم الرد لقوله تعالى « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » فإن فعلوا طاف بهم من إنكار السلطان ما يخشى ويخاف وإن تركوا الرد أسخطوا الله فصار الإمساك أحسن فانكسر ابن حفص وخجل - وبذلك أرجل المنصور المصحفي

عما كان الدهر أركبه ، وألهب جوانحه حزنا وأحاط به من مكروهه ماأحاط وغبر سنين فى مهوى تلك النكبة ينقله المنصور معه فى غزواته إلى أن فاضت بين أثناء المحن نفسه ومن بديع ما حفظ له فى نكبته قوله :

صبرت على الأيام لما تولت
وألزمت نفسى صبرها فاستمرت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى
فإن طمحت تاقت وإلا تسلت
فواعجبا للقلب كيف اعترافه
وللنفس بعد العز كيف استذلت
وكانت على الأيام نفسى عزيزة
فلما رأت صبرى على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتى كريمة
فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ومما حفظ له فى استعطافه المنصور

عفا الله عنك ألا رحمة تجود بعفوك أن أبعدا
لئن جل ذنب ولم أعتمده لأنت أجل وأعلى يدا
ألم ترنى عبدا عدا طوره ومولى عفا ورشيدا هدى
ومفسد أمر تلافيته فعاد فأصلح ما أفسدا
أقلنى أقالك من لم يزل يقيك ويصرف عنك الردى

قال ابن اسماعيل واتفق أن نزلت بجليقية إلى جانب خباء المصحفى فى ليلة نهى فيها المنصور عن إيقاد النار ليخفى على العدو أثره ولا ينكشف إليه خبره فرأيت والله عثمان ولده يسقيه دقيقا قد خلطه بماء يقيم أوده ويمسك بسببه رمقه بضعف حال وعدم زاد وهو يقول :

تعاطيت صرف الحادثات فلم أزل
أراها توفى عند موعدها الحرا
فلله أيام مضت بسبيلها فإنى لا أنسى لها أبداً ذكرا
تجافت بها عنى الحوادث برهة وأبدت لنا منها الطلاقة والبشرا
ليالى ما يدرى الزمان مكانها ولا نظرت منها حوادثه شزرا
وما هذه الأيام إلا سحائب على كل أرض تمطر الخير والشرا

وذكر بعضهم أن المصحفى حصل له فى هذه النكبة من الهلع والجزع ما لم يظن أنه يصدر من مثله حتى إنه كتب إلى المنصور ابن أبى عامر يطلب منه أن يقعده فى دهليزه معلما لأولاده فقال المنصور بدهائه وحذقه إن هذا الرجل يريد أن يحط من قدرى عند الناس لأنهم طالما رأونى بدهليزه خادما فكيف يرونه الآن فى دهليزى معلما . وفى نكبته يقول المصحفى

غرست قضيبا خلته عود كرمة وكنت عليه فى الحوادث قيما
وأكرمه دهرى فيزداد خبثه ولو كان من أصل كريم تكرما

وقد كان المنصور يجيبه فيقول:

الآن يا جاهلا زلت بك القدم   تبغى التكرم لما فاتك الكرم
أغريت بى ملكا لولا تثبته   ما جاز لى عنده نطق ولا كلم
فايئس من العيش إذ قد صرت فى طبق
إن الملوك إذا ما استنقموا نقموا
نفسى إذا سخطت ليست براضية
ولو تشفع فيك العرب والعجم

وقد ظل المصحفى مغضوبا عليه وعلى أولاده حتى اجتثت أصوله وفروعه وكان هشام بن أخيه قد توصل إلى أن سرق من رءوس النصارى التى كانت تحمل بين يدى ابن أبى عامر فى الغزاة الثالثة ليقدم بها على الحضرة فاغتاظ منه ابن أبى عامر وبادره بالقتل فى المطبق قبل عمه جعفر المصحفى واستقصى ابن أبى عامر مال جعفر حتى باع داره بالرصافة وكانت من أعظم قصور قرطبة واستمرت النكبة عليه سنتين يحبس مرة ويترك أخرى ومرة يقر بالحضرة ومرة ينفر عنها ولا براح له من المطالبة بالمال - لم يزل هذا به حتى استصفى (١) ولم يبق فيه محتمل واعتقل فى المطبق بالزهراء إلى أن هلك وأخرج إلى أهله ميتا . وذكر أنه سمه فى ماء شربه . قال محمد بن اسماعيل : سرت مع محمد بن مسلمة إلى الزهراء لنسلم جسد جعفر بن عثمان إلى أهله بأمر المنصور وسرنا

---

(١) ذهب صفوه

إلى منزله فكان مغطى بخلق كساء لبعض البوابين ألقاه على سريره وغسل على فردة باب اختلع من ناحية الدار وأخرج وما حضر أحد جنازته سوى إمام مسجده المستدعى للصلاة عليه ومن حضر من ولده فعجبت من الزمان اه

وقد ترك المنصور المنية المصحفية بعد صاحبها خرابا ذكر الحجارى فى المسهب أن الرئيس أبا محمد بن أحمد بن جعفر المصحفى اجتاز بالمدينة المصحفية التى كانت لجده أيام حجابته للخليفة الحكم المستنصر فاستعبر حين تذكرما آل إليه حال جده مع المنصور بن أبى عامر ، واستيلاءه على ملكه وأملاكه وأنشد :

تف قليلا بالمصحفية واندب مقلة أصبحت بلا إنسان
واسألنها عن جعفر وسطاه وندا‌ه فى سالف الأزمان
جعفر مثل جعفر حكم الدهـــر عليه بعزة وهوان
ولكم حذر الردى فصمما لا أمان لصاحب السلطان
بينما يعتلى غدا خافضا منـــه اكتئاب ككفة الميزان

المنصور وغالب

حضر غالب الناصرى مع ابن أبى عامر فى بعض الغزوات وصعدا إلى بعض القلاع لينظرا فى أمرها فجرت محاورة بينهما فسبه غالب وقال له أنت الذى أفسدت الدولة وخربت القلاع

وتحكمت فى الأمور وسل سيفه فضربه وكان بعض الناس حبس يده فلم يتم الضربة وشجه . فألقى ابن أبى عامر نفسه من رأس القلعة خوفا من أن يجهز عليه فقضى الله تعالى أنه تعلق بشيء أثناء سقوطه نجا به من الهلاك واحتمله بعض أصحابه وعالجوه حتى برئ ولحق غالب بالنصارى فحاربهم وقابله ابن أبى عامر بمن معه من جيوش الإسلام وبعد معركة بين المسلمين والنصارى وجد غالب مقتولا والقرائن تشهد أن ابن أبى عامر مازال متربصا به حتى قتله أثناء احتدام المعركة وبذا تخلصت دولته من الشوائب

المنصور وباقى رجالات الدولة

كان المنصور قد استعان على غالب بجعفر بن أحمد بن حمدون صاحب المَسيلة (١) وقائد الشيعة النازح إلى الحكم أول الدولة بمن كان معه من زناتة والبربر . ولما فرغ من قتل غالب وجه همه إلى التخلص من جعفر فقتله بممالأة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذى النون وعبد الرحمن بن محمد بن هشام التجيبى وغيرهم . ثم لما خلا له الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا واصطنع أولياء وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبنى يعزز ومكناسة وغيرهم فتغلب على هشام وحجره

(١) بلد بالمغرب بناه أبو على بن أحمد بن حمدان الأندلسى

حجره على هشام المؤيد

حجر المنصور على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولى الحجابة وربما أركبه بعض السنين وجعل عليه برنسا وعلى جواريه مثل ذلك فلا يعرف منهن ويأمر من ينحى الناس من طريقه حتى ينتهى المؤيد إلى موضع تنزهه ثم يعود غير أنه أركبه بأبهة الخلافة فى بعض الأيام لغرض له وذلك أنه علم ما فى نفوس الناس لظهور هشام ورؤيته إذ كان منهم من لم يره قط فأبرزه للناس وركب الركبة المشهورة واجتمع لذلك من الخلق ما لا يحصى وكانت عليه الطويلة والقضيب فى يده زى الخلافة والمنصور يسايره . وكان المنصور إذا سافر وكل بالمؤيد من يتولى حجره فكان هذا من فعله سببا لانقطاع ملك بنى أمية بالأندلس وأخذ مع ذلك فى قتل من يخشى منهم من بنى أمية خوفا أن يثوروا به ويظهر أنه يفعل ذلك شفقة على المؤيد حتى أفنى من يصلح منهم للولاية ثم فرق باقيهم فى البلاد وأدخلهم زوايا الخمول عارين من الطراف والتلاد حتى قال بعض من ينقم على المنصور ذلك من قصيدة :

أبنى أمية أين أقمار الدجى ... منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها ... فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

المنصور والملكة صبح

وقعت وحشة ونفور بين ابن أبى عامر والمؤيد وكان سببها سعى الحساد فيما بينهما وعلم أنه ما دهى إلا من جانب حاشية القصر ففرقهم ومزقهم ولم يدع فيه منهم إلا من وثق به أو عجز عنه . ثم ذكر له أن الحرم قد انبسطت أيديهن فى الأموال عند ماحدث من تغير صبح على ابن أبى عامر وانها أخرجت فى بعض الأيام مائة كوز مختومة على أعناق الخدم الصقالبة فيها الذهب والفضة وموهت ذلك كله باللبن والشهد والأصباغ المتخذة بقصر الخلافة وغير ذلك وكتبت على رءوس الكيزان أسماء ذلك ومرت على صاحب المدينة فما شك فى أن فيها إلا المكتوب عليها وكان مبلغ ماحملت فيها من الذهب ثمانين ألف دينار فأحضر ابن أبى عامر جماعة وأعلمهم أن الخليفة مشغول عن حفظ الأموال بانهماكه فى العبادة وأن فى إضاعتها آفة على المسلمين وأشار بنقلها إلى حيث يؤمن عليها فحمل منها خمسة آلاف ألف دينار عن قيمة ورق وسبعمائة ألف دينار ذهبا وكانت صبح قد دافعت عما بالقصر من الأموال ولم تمكن من إخراجها فاجتمع ابن أبى عامر بالخليفة هشام وأخذ منه اعترافا له بالفضل والغناء فى حفظ قواعد الدولة فخرست الألسنة . أرادت صبح بعد ذلك أن تنبه ابنها إلى ملكه المسلوب وحرضت زيرى بن عطية على أن

يثير الدعوة ضد المنصور ولكن كل هذا لم يغير من مركز المنصور فخف إلى زيرى وشرده وأرغم الملكة على ترك السياسة والعكوف داخل القصر على العبادة

كيف تم الأمر للمنصور

نشأ المنصور فى بيت ألف الجد والاستقامة فظل حياته مجداً عاملا مات أبوه وتركه صغيراً فتولى تربيته الدهر والدهر خير مرب فصلب عوده قبل أوانه وقويت قناته فى أول ظهورها فلم يجد فيها أحد مغمزاً ولا فى عوده مذاقاً ولا مكسراً . كان يشعر بجده من عهد حداثته فأثر هذا فى مجده ورفعة شأنه وشجعه على مواجهة الشدائد والاستبسال للحوادث وتذليل العقبات التى اعترضته فى سبيل نهوضه . وكان يحس فى نفسه إحساساً خفياً بسعود جده ونباهة شأنه فى مستقبل أمره وكأنه كان يشعر تماماً أن الزمان لاشك محالفه وأن الظروف بلاريب ستعينه فى بلوغ أربه فكان له من ذلك الشعور الخفى قوة هائلة سحقت أمامها كل اعتبار وليس أدل على ذلك من الحكاية التى حكاها عنه أبو عبد الله ابن إسحاق التميمى حين كان أبعد ما يكون عن الوصول إلى السيطرة والحكم كيف كان يحلم بهما فى بدء حياته ويراهما منه قاب قوسين أو أدنى ويشعر تماماً أنهما فى متناول يده بعد قليل

وكيف كانت الثقة تشتد به إلى حد أن يحدث بعض أصدقائه بما يقع له فى ذلك بل إلى حد أن يفكر فى تعيين من يصلح للمناصب وهو ناشىء يطلب العلم قال أبو عبد الله

« كان محمد بن أبى عامر نازلا عندى فى حجرة فوق بيتى فدخلت عليه فى بعض الليالى فى آخر الليل فوجدته قاعداً على الحال التى تركته عليها أول الليل حين نصلت عنه فقلت له « ماأراك نمت الليلة » قال لا : قلت : فما أسهرك . قال : فكرة عجيبة قال له « فيم كنت تفكر » قال فكرت إذا أفضى إلى الأمر ومات محمد بن بشير القاضى فبمن أستبدله ؟ ومن الذى يقوم مقامه ؟ فجلت الأندلس كلها بخاطرى فلم أجد إلا رجلا واحداً قلت لعله محمد بن السليم قال هو والله . لشد ما اتفق خاطرى وخاطرك »

والحكاية الأخرى التى تحكى عنها دليلا على ماقلناه : « أنه كان جالساً مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم فقال لهم ليختر كل واحد منكم خطة أوليه إياها إذا أفضى إلى الأمر فقال أحدهم توليني قضاء كورة رية وهي مالقة وأعمالها فإنه يعجبنى هذا التين الذى يجىء منها . وقال الآخر توليني حسبة السوق فإنى أحب هذا الإسفنج . وقال الثالث إذا أفضى إليك الأمر فأمر أن يطاف بى فى قرطبة كلها على حمار ووجهى إلى الذنب وأنا مطلى بالعسل

ليجتمع الذباب والنحل على وافترقوا على هذا فلما أفضى الأمر إليه كما تمنى بلغ كل واحد منهم أمنيته كما طلب

من هذا نرى أن المنصور كان طموحاً إلى العلا وكان يساعد جده بجده ويشترى المودة بما يملك ويأتى البيوت من أبوابها رأى أيام الحكم أن الملكة صبحا صاحبة الكلمة فتودد إليها بأصحابه أولا وبحسن كتابته ونشاطه ثانياً وبهداياه الثمينة أخيرا من ذلك أنه حين كان صاحب دار الضرب أهدى إلى الملكة صبح أم هشام قصراً صنعه من فضة وحمله على رءوس الرجال إليها فجلب حبها بذلك وقامت بأمره عند سيدها الحكم وحدث الحكم خواصه بذلك وقال إن هذا الفتى قد سلب عقول حرمنا بما يتحفهم به.

ولم يقعد المنصور عن التودد إلى العامة بعد أن استولى على أفئدة الخاصة حكى محمد بن أفلح غلام الحكم قال: « دفعت إلى مالا أطيقه من نفقة فى عرس ابنة لى ولم يبق معى سوى لجام محلى ولما ضاقت بى الأسباب قصدته بدار الضرب حين كان صاحبها والدراهم بين يديه موضوعة مطبوعة فأعلمته ماجئت له فابتهج بما سمعه وأعطانى من تلك الدراهم وزن اللجام بحديده وسيوره فملأ حجرى وكنت غير مصدق بما جرى لعظمه وعملت العرس وفضلت لى فضلة كثيرة وأحبه قلبى حتى لو حمانى على خلع طاعة مولاى الحكم لفعلت وكان ذلك فى أيام الحكم قبل أن يقتعد ابن أبى عامر الذروة »

وفوق ما كان يبذله من تواد ويقدم من هدايا وأعطيات كان زكيا شهما وسياسياً مدرباً حكى صاحب الكامل أن المنصور دخل بلاد الأفرنج غازياً فجاز الدرب إليها وهو مضيق بين جبلين وأوغل فى بلاد الأفرنج يسبي ويخرب ويغنم فلما أراد الرجوع رآهم قد سدوا الدرب عليه ووقفوا يحفظونه من المسلمين فأظهر أنه يريد المقام فى بلادهم وشرع هو وعسكره فى عمارة المساكن وزرع الغلات وأحضروا الحطب والتبن والميرة وما يحتاجون إليه فلما رأوا عزمه على المقام مالوا إلى السلم فراسلوه فى ترك الغنائم والجواز إلى بلاده فقال أنا عازم على المقام فتركوا له الغنائم فلم يجبهم إلى الصلح فبذلوا له مالا ودواب تحمل له ما غنمه من بلادهم فأجاب إلى الصلح وفتحوا له الدرب فجاز إلى بلاده وكان المنصور صادق التنبؤ ألمعياً يظن الظن كأن قد رأى وقد سمعا . حكى ابن حيان فى كتابه أن المنصور كان جالسا فى بعض الليالى وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر فدعا بأحد الفرسان وقال له امض الآن إلى فج طيالس فأقم فيه وأول خاطر يخطر عليك سقه إلى فنهض الفارس وبقى فى الفج فى البرد والريح والمطر واقفاً على فرسه إذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار ومعه آلة الحطب فقال له الفارس إلى أين ياشيخ فقال وراء حطب فقال الفارس فى نفسه هذا شيخ مكسين نهض

إلى الجبل يسوق حطباً فماذا عسى أن يريد المنصور منه قال ثم تركه فسار عنه قليلا ففكر فى قول المنصور وخاف سطوته فنهض إلى الشيخ وقال له ارجع إلى مولانا المنصور فقال له وماذا عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلى سألتك بالله أن تتركنى أذهب لطلب معيشتى فقال له الفارس لا أفعل ثم قدم به إلى المنصور ومثله بين يديه وهو جالس لم ينم ليلته تلك فقال المنصور للصقالبة فتشوه ففتشوه فلم يجدوا معه شيئا فقال فتشوا بردعة حماره فوجدوا داخل بردعة حماره كتاباً من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليضربوا ويقتلوا فى إحدى النواحى الموطومة (١) فلما انبلج الصبح أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة فضربت أعناقهم وضربت رقبة الشيخ معهم — ومثل ذلك قصة الجوهرى التاجر روى ابن حيان أن رجلا جوهريا من تجار الشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير وأحجار نفيسة فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه ودفع إلى التاجر صرته وكانت قطعة يمانية فأخذ التاجر فى انصرافه طريق الرملة على شط النهر فلما توسطها واليوم قائظ وعرقه منصب دعته نفسه إلى التبرد فى النهر فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط فمرت

(١) الموطوءة

حدأة فاختطفت الصرة تحسبها لحما وصاعدت الأفق بها ذاهبة فقطعت الأفق الذى تنظر إليه عين التاجر فقامت قيامته وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة فأسر الحزن فى نفسه ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها وحضر الدفع إلى التجار فحضر الرجل لذلك بنفسه فاستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة وفقدان النشاط فسأله المنصور عن شأنه فأعلمه بقصته فقال له هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر فكنا نستظهر على الحيلة فهل هديت إلى الناحية التى أخذ الطائر إليها قال مشرقاً على سمت هذا الجبل الذى يلى قصرك (يعنى الرملة) فدعا المنصور شرطيه الخاص به وقال له جئنى بمشيخة أهل الرملة الساعة فمضى وجاء بهم سريعاً فأمرهم بالبحث عمن غير حال الإقلال منهم سريعا وانتقل عن الضيق دون تدريج فتناظروا فى ذلك ثم قالوا يامولانا ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ويتناولون السبق بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة ، فابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده كسوة متوسطة ، فأمر بإحضاره من الغد وأمر التاجر بالغدوة إلى الباب ، فحضر الرجل بعينه بين يدى المنصور فاستدناه والتاجر حاضر وقال له : سبب ضاع منا وسقط إليك مافعلت به ؟ قال : هو ذا يامولاى وضرب بيده إلى حجزة سراويله فأخرج الصرة بعينها فصاح التاجر طرباً وكاد يطير فرحاً

فقال له المنصور : صف لى حديثها ، فقال : بينا أنا أعمل فى جنانى تحت نخلة إذ سقطت أمامى فأخذتها وراقنى منظرها فقلت : إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار فاجتزت بها ودعتنى فاقتى إلى أخذ عشرة مثاقيل عيوناً كانت معها مصرورة وقلت : أقل ما يكون فى كرم مولاى أن يسمح لى بها فأعجب المنصور ما كان منه وقال للتاجر : خذ صرتك وانظرها واصدقنى عن عددها ، ففعل وقال : وحق رأسك يا مولاى ما ضاع منها شىء سوى الدنانير التى ذكرها وقد وهبتها له ، فقال له المنصور : نحن أولى بذلك منك ولا تنغص عليك فرحك ، ولولا جمعه بين الإصرار والإقرار لكان ثوابه موفوراً عليه ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً عن دنانيره وللجنينى بعشرة دنانير ثواباً وقال : لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث أوسعناه جزاء ، قال فأخذ التاجر فى الثناء على المنصور وقد عاوده نشاطه وقال : والله لأبثن فى الأقطار عظم ملكك ولأبينن أنك تملك طير أعمالك كما تملك أنفسها فلا تعتصم منك ولا تمتنع ولا تؤذى جارك فضحك المنصور وقال : اصدق فى قولك يغفر الله لك فعجب الناس من تلطف المنصور فى أمره وحيلته فى تفريج كربته

وكان المنصور إذا أراد أمراً مهماً شاور أرباب الدولة والأكابر من خدامها ، فيشيرون عليه بالوجه الذى عرفوه وجرت

الدولة الأموية عليه فيخالفهم إلى المنهج الذى ابتدعه فيقضون في أنفسهم بالهلاك فى الطريق الذى سلكه والمهيع الذى اخترعه فتسفر العاقبة عن السلامة التامة التى اقتضاها سعده فيكثرون التعجب عن موارد أموره ومصادرها . قيل له مرة إن فلاناً شؤم فلا تستخدمه فقال : أف لسعد لا يغطى على شؤمه ، واستخدمه فلم ينله من شؤمه الذى جرت به العادة شىء ، فهو إذن وهو فى أيام رفعته بعد أن حالفه الجد وتم له الأمر كان واثقاً من دوام محالفة الزمان له مطمئناً إلى جده ساخراً بكل شؤم يصادفه ليقينه من تغلب سعده على كل عقبة تعترضه — ولقد كانت العناية الإلهية ترعاه فى حكمه وتبعد عنه الجور فى عدله

حكى أنه عرض عليه اسم أحد خدمه فى جملة من طال سجنه وكان شديد الحقد عليه فوقع على اسمه بأن لا سبيل إلى إطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية وعرف الرجل بتوقيعه فاهتم واغتم وأجهد نفسه فى الدعاء والمناجاة فأرق المنصور إثر ذلك واستدعى النوم فلم يقدر عليه وكان يأتيه عند تنويمه آت كريه الشخص عنيف الأخذ يأمره بإطلاق الرجل ويتوعده على حبسه فاستدفع شأنه مرارا إلى أن علم أنه نذير من ربه فانقاد لأمره ودعا بالدواة فى مرقده فكتب بإطلاقه وقال فى كتابه هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبى عامر وتحدث الناس زمانا بما كان منه — ولقد

كان المنصور فى جهاده صادقاً وبلقاء الله مؤمنا كثير الورع قوى الرجاء اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار فى غزواته ومواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل فى كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصييرها فى حنوطه وكان يحملها حيث سار مع أكفانه توقعا لحلول منيته وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه فى طريق الجهاد فكان ذلك . وكان متسما بصحة باطنه واعترافه بذنبه وخوفه من ربه وكثرة جهاده وإذا ذكر بالله ذكر وإذا خوف من عقابه ازدجر ولم يزل متنزهاً عن كل ما يفتتن به الملوك عادلا فى الخاصة والعامة باسطا الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته . أنشأ صفوفاً فى الجيش من جند المرتزقة (زناتة وصنهاجة وغيرهما من البربر) - ومن جند النصارى (ليون وقشتالة ونافار) وبذل لهم الأجور العالية واستأثر قلوبهم بعدله ورفقه ولينه وغير أنظمة الجيش فقدم رجال البربر وأخر زعماء العرب وأقصاهم عن مناصبهم وفرق جند القبيلة الواحدة فى صفوف مختلفة وكانوا قبل عهده ينتظمون فى صف واحد وكان العرب يتمسكون بوحدة القبيلة لأن العصبية فى قبائلهم كانت لاتزال فتية متينة ولكن الثورة التى أحدثها ابن أبى عامر فى أنظمة الجيش لم تلق كبير معارضة لشدة يقظته ومضائه وضعف العصبية وانحلالها منذ عهد الناصر

حروبه

كان له من حروبه المستمرة غاية سامية لم يفكر فيها أحد قبله من أمراء الأندلس أو ساستهم ذلك أنه فكر فى أن يسحق نصارى الشمال والغرب سحقاً تاماً وأن يقضى على استقلالهم القومى وأن يخضعهم جميعاً لسلطة الخلافة ، وقد خالف فى ذلك خطة من تقدمه من الغزاة والمحاربين فقد كان هؤلاء يحاربون للدفاع ولرد غارات النصارى أما هو فقد كان يبدأ الحرب دائما ولم يقبل من أعدائه صلحا أو مهادنة بدأ حروبه بغزو ليون عقابا لملكها على مساعدته لخصمه غالب فسار إلى مدينة زامورة (سمورة) وحاصرها فى يولية سنة ٩٨١ م ولما لم يستطع الاستيلاء على قلعتها المنيعة أحرق كل ما حولها وأمعن فى القتل والتخريب حتى إنه خرب فى بقعة واحدة ألف قرية وضيعة آهلة بالسكان فتحالف راميرو الثالث ملك ليون وجارسيا فردينان كونت قشتالة وملك نافارا على قتاله وسارت جيوشهم للقائه ونشب القتال بين الفريقين فى رودا جنوب غربى سيمانقا فهزم النصارى واستولى المسلمون على سيمانقا واستورقة ثم زحفوا على مدينة ليون فلاقاهم راميرو واستطاع أن يقف زحفهم وأن يردهم إلى معسكرهم حيث كان المنصور مع بقية الجيش فأنبهم ودفعهم إلى المدينة ثانية فاقتحموها والثلوج تقطر من ثيابهم

وعندئذ ساءت الأحوال فى مملكة ليون لأن راميرو الثالث فوق ما أصابه من الهزائم أرهق أمته بالافتيات على حقوقها والتوسع فى سلطته فاضطرمت جليقية أهم ولاياته بالثورة واعتزم أشرافها أن يولوا العرش برمود (برمند) ابن عم راميرو وفى أكتوبر سنة ٩٨٢م توج هذا الأمير ملكا فى سان جاك فبادر راميرو بمحاربته ونشبت بينهما موقعة رائعة غير حاسمة فى بورتيلادى آرباس على حدود ليون وجليقية .

ثم عاد برمود إلى محاربة خصمه واستولى على ليون فى مارس سنة ٩٨٤ م فالتجأ راميرو إلى مدينة استرقة والتمس مساعدة المنصور على أن يقر سيادته ولكنه توفى فى يونية سنة ٩٨٤ وحاولت أمه أن تحكم بمعاونة المنصور فأبى مساعدتها وأدرك برمود أنه إذا لم يلتجئ إلى المسلمين فلن يستطيع إخضاع الأشراف الذين رفضوا الاعتراف بحكمه فتقدم إلى المنصور وعرض عليه شروطا حسنة فرضيها وأمده بجيش كبير استطاع أن يخضع به جميع المملكة على أنه أصبح تابعا للمنصور وبقيت فى ليون حامية كبيرة من جند المسلمين .

ثم وجه المنصور جيوشه نحو كتالونيا التى كان يحكمها بعض موالى ملك فرنسا وكان المسلمون إلى ذلك الحين يحجمون عن

غزوها لاعتقادهم أنهم بغزوها يحاربون فرنسا ولكن المنصور رأى أن الفوضى السائدة فى المملكة الفرنسوية عندئذ تحول دون إنجادها لكتالونيا فسار بجيشه من قرطبة فى ٥ مايو سنة ٩٨٥ متجها نحو هذه الولاية ولاقاه أميرها الكونت بوريل فهزمه المنصور وزحف على برشلونة عاصمتها التى استولى عليها الفرنج فى عهد الحكم بن هشام وبقيت فى حوزة مواليهم إلى ذلك العهد فاستولى عليها فى يولية وأحرقها وقتل معظم السكان والجند ثم استولى على سيبولفيدا وغيرها من حصون قشتالة وهزم جيوش جارسيا أمير قشتالة وسانكو أمير نافار فى سبتمانكا واستولى عليها وخرب معظم الحصون والقلاع فى تلك الجهة .

وفى ذلك الحين عصفت الدعوة الفاطمية ثانية بسلطة الأمويين فى المغرب الأقصى وكان الحسن بن كانون بعد أن هزمته جيوش الحكم المستنصر قد التجأ إلى المعز بمصر ولبث هنالك حتى سنة ٣٧٣ ﻫ ثم أقره المعز واليا على المغرب الأقصى وأمر عامله على إفريقية بولكين بن زيرى الصنهاجى أن يمده بالجند فاخترق الحسن بلاد المغرب وسارعت قبائل البربر إلى طاعته فلما علم المنصور بذلك سير إلى المغرب جيشا كبيرا بقيادة ابن عمه عبد الله ابن عامر المعروف بعسكلاجة فعبر البحر إلى سبتة ونشب القتال بينه وبين الحسن ثم وافاه مدد من المنصور بقيادة ابنه عبد الملك

فأذعن الحسن لطلب الصلح على أن يسير إلى الأندلس ثانية فرضى بذلك غير أنه دس على الحسن من اغتاله فى طريقه إلى قرطبة وأتاه برأسه سنة ٣٧٥ هـ وبقتله انقرضت دولة الأدارسة وركدت ريح العلويين فى المغرب الأقصى .

وولى المنصور على المغرب الوزير حسن بن عبد الودود السلمى سنه ٣٧٦ هـ وأمره بالعمل على استمالة البربر فى هاتيك الأقطار - إذ يجب ألا ننسى أن البربر كانوا للمنصور عونا على إخضاع القبائل العربية بالأندلس وأنه ألف منهم حاشيته وجند جنده وعين زعماءهم فى أرقى المناصب حتى سما شأنهم بقرطبة - فنفذ الوزير ما أمر به ونزل بفاس واجتمعت عليه البربر ولكنه قتل سنة ٣٨١ هـ أثناء غزوة قام بها ضد الخوارج فاختار المنصور عندئذ لولاية المغرب زيرى بن عطية زعيم مغراوة أشد قبائل البربر إذ ذاك بأسا فقام فى المغرب بدعوة هشام المؤيد والحاجب المنصور ثم اتخذ مدينة فاس قاعدة لحكومته وارتفع شأنه وامتد نفوذه ولكنه ظل متمسكا بدعوة الأمويين .

عامل جند المنصور الذين تركهم فى ليون أمراءها وسكانها معاملة البلاد المفتوحة ولما شكا إليه برمود ذلك مرارا ولم ينصفه اعتزم أخيرا أن يطرد الحامية المحتلة فانقض عليها وردها إلى خارج الحدود فاضطر المنصور عندئذ إلى الحرب والواقع أن

المنصور لم يسؤه التأهب لتلك الحرب الجديدة فقد أراد أن يشغل سكان قرطبة بالتحدث عن غزواته بدل التحدث فى أمور لا تعنيهم فى رأيه كالتحدث بعلاقته مع صبح واغتصابه للحكم بممالأتها وحجره على هشام فسار توا إلى كوامبره واستولى عليها فى يونية سنه ٩٨٧ م وأمعن فى تخريبها حتى لبثت قاعا صفصفا مدة سبعة أعوام ثم أغار سانكو ملك نافارا على الحدود الإسلامية فسار المنصور لقتاله وطارده حتى مدينة بنبلونة وهنالك انقلب البشكنز إلى الهجوم وهزموا المسلمين سنه ٣٧٦ ﻫ سنه ٩٧٨ م وفى نفس الوقت سار جيش من الفرنسيين إلى برشلونة تعاونه السفن من البحر فاستولى عليها ولم تلبث طويلا فى يد المسلمين .

وفى العام التالى عبر المنصور نهر الدورو وانقض جيشه كالسيل على ليون يدمر ويمحق كل ما يعترض سبيله فالتجأ برمود إلى سامرة لاعتقاده أن المنصور سيبدأ بمهاجمتها ولكن المنصور سار تواً إلى مدينة ليون فقاومته حيناً لمناعة قلاعها ولكنه خرق أسوارها بعد قتال رائع قتل فيه قائد الحامية الكونت جونزالفو كونزالز فدخلها المسلمون وأبادوا سكانها وغادروها أطلالا دارسة وبعدئذ سار المنصور إلى زامورا وأحرق فى طريقه أديرةسان بيدر وديسلونسا وساهاجون الفخيمة ثم حاصر زامورا ففر برمود منها سراً وسلم السكان المدينة إلى المنصور فأمر بنهبها

واعترف بسيادته معظم الكونتات ولم يبق لبرمود من ملكه سوى الجهات المجاورة للمحيط

ولما عاد المنصور إلى الزاهرة كشف مؤامرة خطيرة دبرها ضده الأشراف باشتراك ولده عبد الله وكان يبغض ولده هذا ويشك فى صحة بنوته ويؤثر عليه عبد الملك برغم تفوقه عليه فى الشجاعة والخلال وكان بين المؤتمرين عبد الرحمن بن مطرف التجيبى حاكم سرقسطة الذى كان يخشى أن ينزع منه المنصور سيادته التى توارثها آباؤه منذ نيف وقرن كما فعل بغيره من عظماء الدولة واتفق المتآمرون على مباغتة المنصور وجنده فى أول فرصة واقتسام السيادة بينهم وكانت هذه مؤامرة خطيرة.

وكان المنصور لحسن طالعه علم بأمرها قبل أن تتم أهبة خصومه فبادر باستمالة ولده وترضيته وتظاهر بالعطف عليه، ثم عزل عبد الرحمن التجيبى وعين مكانه ابنه يحيى لكى لا يغضب بنى هاشم ولكنه عاد فأمر بالقبض عليه وسجنه بحجة تبديده لأجور الجند ثم حاكمه وأمر بإعدامه فأعدم فى الزاهرة سنة ٩٨٩ م

أما عبدالله فلم ينخدع بعطف أبيه الكاذب فلما سار المنصور فى العام الثانى لغزوة قشتالة فر عبدالله أثناء حصار سنت استيفان والتجأ إلى جارسيا فردينان كونت قشتالة ولكن المنصور استولى على أوسمة والكوبا ومزق جيوش الكونت فاضطر إلى طلب الصلح

وإلى تسليم عبدالله ولما غادر المنصور معسكره وعبر الدورو أمر بإعدام عبد الله فقطع رأسه فى سبتمبر سنة ٩٩٠ م

ونقم المنصور من كونت قشتالة حمايته ولده فحرض سانكو ابن الكونت على الثورة عليه وساعد الأشراف فثار سنة ٩٩٤ م وسار المنصور فى نفس الوقت لمحاربة الكونت واستولى على سان استيفان وكلونيه ثم طال دفاع الكونت فغضب المنصور وصمم على ألا يغادر ميدان الحرب قبل سحقه ، وفى ذات ليلة قدم إلى معسكره شاعر يدعى صاعد بن الحسن (أبو العلاء البغدادى) وقدم إليه أيلا فى عنقه حبل وكتب معه قصيدة يتنبأ له فيها بالنصرة جاء فيها

عبد جذبت بضبعه ورفعت من مقداره أهدى إليك بأيل
سميته غرسية وبعثته فى حبله ليصح فيه تفاؤلى

فقضى الله أن تصح نبوءة الشاعر وجرح جرسيا فرديناند ، وأسر بالقرب من لانجا على ضفاف نهر الدورو فى نفس اليوم الذى قدم فيه صاعد الأيل إلى المنصور وتأيدت سلطة سانكو ولكنه اضطر أن يدفع إلى المسلمين جزية سنوية . وفى خريف هذا العام سار المنصور إلى غزوة برمود وكانت قد ساءت أحواله وانتقض عليه الأشراف وسلبوه ضياعه وسلطته فجعل استرقة عاصمته بعد خراب ليون ثم تركها حين اقتراب المنصور منها

والتمس منه الصلح فمنحه إياه واشترط عليه الجزية واستولى على زامورا وولى عليها من قبله معن بن عبد العزيز التجيبي

أخذ زيرى بن عطية يثير الدعوة على المنصور بتحريض من صبح ويعرض بحجره على المؤيد فقطع عنه المنصور مرتب الوزارة ومحا اسمه من ديوانه وقطع زيرى كذلك ذكره من الخطبة وطرد عماله بالمغرب فأنفذ إليه المنصور مولاه واضحاً الفتى العامرى فى جيش عرمرم وأمده بالأموال والذخائر فنزل واضح بطيحة فانضم إليه بعض قبائل البربر من غمارة وصنهاجة وحالفته على قتال زيرى ، وسار زيرى لقتاله ونشبت بين الفريقين معارك شديدة مدى ثلاثة أشهر فى وادى زامرات إلى أن هزم واضح وفرق جيشه ففر إلى طنجة وكتب لى المنصور يستنصر به

فخرج المنصور من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ثم أجاز ابنه عبد الملك المظفر بجميع عسكر الأندلس وقواده وأمره بحرب زيرى فعبر المظفر البحر إلى سبته واتصل جنده بزيرى فتأهب لملاقاته وكتب إلى جميع قبائل زناتة يستصرخهم فأتته الوفود من سائر النواحى وسار بهم إلى قتال عبد الملك وزحف عبد الملك من طنجة مع واضح فى جيوش لا تحصى والتقى الفريقان بوادى منى من أحواز طنجة فنشبت بينهما معارك هائلة هزم البربر فى نهايتها شر هزيمة وقتل منهم عدد جم وجرح زيرى واستولى عبد الملك

على غنيمة عظيمة من معسكره ثم طارده حتى مكناسة ففر إلى الصحراء مع نفر من أصحابه . ثم دخل عبدالملك فاس سنة ٣٨٧هـ وكتب إلى أبيه بالفتح فكتب إليه بعهده على المغرب وعاد واضح بالجيش إلى قرطبة ولبث عبد الملك واليا بالمغرب ستة أشهر فقط ثم عاد إلى الأندلس وخلفه عيسى بن سعيد صاحب الشرطة فلبث مدة ثم خلفه واضح وفى ذلك الحين عاد زيرى بفلوله إلى مقاتلة صنهاجة وأعاد الدعوة إلى هشام والحاجب المنصور وكتب إلى المنصور يسترضيه فأعاده إلى الولاية وعند وفاته سنه ٣٩١ هـ خلفه ابنه المعز بمصادقة المظفر ولبث المعز فى طاعة بنى أمية ينشر دعوتهم ويوطد سلطانهم بالمغرب حتى اضطرب حبل الخلافة بالأندلس

وفى هذه الأثناء ذهب المنصور لغزو مدينة شنت ياقب قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا وللكعبة المثل الأعلى فبها يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب الحوارى أحد الاثنى عشر وكان أخصهم بعيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وهم يسمونه أخاه للزومه إياه وياقب بلسانهم يعقوب وكان أسقفا ببيت المقدس فجعل يستقرى الأرضين داعيا لمن فيها حتى انتهى إلى هذه القاصية ثم عاد إلى

أرض الشام فمات بها وله مائة وعشرون سنة شمسية فاحتمل أصحابه رمته ودفنوها بهذه الكنيسة التى كانت أقصى أثره ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام فى قصدها ولا الوصول إليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شقتها فخرج المنصور إليها من قرطبة غازيا بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٨٧ ﻫ (وهى الغزوة الثامنة والأربعون له) ودخل على مدينة قورية فلما وصل إلى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس (الكونتات) المتمسكين بالطاعة فى رجالهم وعلى أتم احتفالهم فصاروا فى عسكر المسلمين وركبوا فى المفازة سبيلهم وكان المنصور تقدم فى إنشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الأندلس وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين وحمل الأقوات والأطعمة والعدة والأسلحة استظهارا على نفوذ العزيمة إلى أن خرج بموضع برتقال على نهر دويرة فدخل فى النهر إلى المكان الذى عمل على العبور منه فعقد من هذا الأسطول جسرا بقرب الحصن الذى هنالك ووجه ما كان فيه من الميرة إلى الجند فتوسعوا فى التزود منه إلى أرض العدو ثم نهض منه يريد شنت ياقب فقطع أرضين متباعدة الأقطار وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الأخضر ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه

ولا طريق ولم يهتد الأدلاء إلى سواه فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه فقطعه العسكر وعبروا بعده وادى منية وانبسط المسلمون بعد ذلك فى بسائط عريضة وأرضين وانتهت مغيرتهم إلى دير قشان وبسيط بلنبو على البحر المحيط وفتحوا حصن شنت بلاية وغنموه وعبروا بساحته إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحى فسبوا من فيها ممن لجأ إليها وانتهى العسكر إلى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه ثم جاز المسلمون بعد هذا خليجا فى معبرين أرشد الأدلاء إليهما ثم نهر الأبلة ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر فغادره المسلمون قاعا صفصفا. وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان فوجدها المسلمون خالية من أهلها ولم يجدوا إلا شيخا من الرهبان جالسا على القبر فسأله المنصور عن مقامه فقال أونس يعقوب فكف عنه وقد حاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما كأن لم تغن بالأمس واتسفت بعد ذلك سائر البسائط وانتهت الجيوش إلى مدينة شنت مانكش منقطع هذا الصقع

على البحر المحيط وهى غاية لم يبلغها قبله مسلم ولا وطئها لغير أهلها قدم (ذكر بعض المؤرخين أن طارقا وصل إليها) وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله فجعل فى طريقه القصد على عمل برمند بن أردونو يستقريه عائثا ومفسدا حتى وقع فى عمل القوامس المعاهدين الذين فى عسكره فأمر بالكف عنه ومر مجتازا حتى خرج على حصن بليقية وتمكن من افتتاحه فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم إلى بلادهم ووافى جميع العسكر قرطبة غانما وعظمت النعمة والمنة على المسلمين

الزاهرة

فى سنة ٣٦٨ ﻫ بنى المنصور بن أبى عامر الزاهرة بطرف قرطبة إلى الشرق على النهر الأعظم وحشد الصناع والفعلة وجلب إليها الآلات الجليلة وسربلها بهاء يرد الأعين كليلة وتوسع فى اختطاطها وبالغ فى رفع أسوارها وفى سنة ٣٧٠ ﻫ انتقل إليها ونزلها بخاصته وعامته وشحنها بجميع أسلحته وأمواله ومتاعه واتخذ فيها الدواوين والأعمال وعمل فى داخلها الأهراء [1] ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه فابتنوا بها شامخات القصور واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة والمنازه المشيدة وقامت فيها

---

(١) الهرى بضم الهاء بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان والجمع أهراء

الأسواق وتنافس الناس فى النزول بأكنافها للدنو من صاحب الدولة حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة وأفرد الخليفة من كل شيء إلا من الاسم الخلافى وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينة الزاهرة أموال الجبايات ويتتابعها طلاب الحاجات وعطل قصر الخليفة من كل شيء وصيره بمعزل عن سامعه ومطيعه وسد باب قصره عليه ورتب عليه الحراس والبوابين يراقبون حركات من فيه ليلا ونهارا ومنع الخليفة كل تدبير

الغرض من بنائها

يرجع سبب بناء الزاهرة إلى أمور منها :

(١) أن المنصور لما تم له الأمر وقبض على ناصية الدولة وصار صاحب الحل والعقد والأمر والنهى فيها ورأى الخاصة ومستخدمى القصر وعمال الدولة يتحفزون للوثوب به والعمل على إسقاطه من على كرسيه بالسعى بينه وبين الخليفة تارة وبتنبيه الخليفة إلى ملكه المسلوب وسلطانه الضائع تارة أخرى أراد أن يحول بين الخليفة والعمال فجعله فى قصره بالزهراء وحفر حول القصر خندقا ملأه بالماء وأقام بالطرق المؤدية إلى هذا القصر حراسا ومنع زيارة الخليفة أو رؤيته إلا بإذن منه وبشرط ألا تزيد الزيارة على بضع دقائق يكون الزائر فيها متبعا تعاليم أملاها عليه المنصور ومقيدا بقيود وعبارات لا يتعداها إذ الرقابة عليه شديدة

والحراس من عن يمينه وشماله يرقبون حركاته وسكناته حتى إذا أدى الزيارة وخرج لا يعود إلى زيارة أخرى إلا فى العام التالى وقد لا يعود، بكل هذا جعل المنصور الخليفة أعزل من وزير ناصح وسمير أديب واستبدل له برجال الدولة الجوارى والغلمان وبالجلوس فوق أرائك الأمر والنهى الجلوس فى المتنزهات والحدائق محاطا بالخصيان وآلات الطرب ورأى أن الدولة بذلك أصبحت بلا قاعدة ملك فاختط الزاهرة لتكون دار الدولة وعاصمة الملك وليصدر عنها الأمر وترد إليها أخبار الأقاليم والجبايات .

(٢) رأى بفكره الثاقب أن الأمر لا ترسو قواعده ولا يثبت أساسه إلا إذا جعل الناس ينسون الخليفة ومدينته ولا يتم له ذلك إلا إذا جعله عنهم بمعزل ونقل الحركة التجارية والعلمية وديوان الحكم إلى مدينة جديدة غير مدينة الخليفة يذكر بذكرها المنصور ويهتف باسمه فى ميادينها ورأى أنه بذلك يستطيع على مرور الأيام أن يمحو اسم الخليفة جملة ويقضى على دولة بنى أمية قضاء مبرما .

(٣) رأى أنه بقيامه بعملية البناء يستخدم عمالا من النصارى وغيرهم من الناقمين عليه والمبغضين له وباستخدامه لهم يستطيع أن يستميل قلوبهم ويفوز بمودتهم . وفوق ذلك كان يعمل بيده

مع العاملين ويشجعهم بأنواع الثناء والثواب . ويدلنا على أن من أغراضه فى البناء اكتساب القلوب ماورد من أنه عند ماوسع جامع قرطبة دفع لأصحاب البيوت المجاورة أضعاف ثمنها وجعل المسيحيين يشتغلون فى الحفر ونقل الحجارة وأنه عند ما أقام قنطرة على نهر قرطبة كان هناك قطعة أرض لرجل فقير، وكان البناء لا بد آتياً على هذه القطعة فأمر عماله أن يرضوا الرجل فطلب الرجل عشرة دنانير ذهباً فعد العمال ذلك غنيمة وأعطوه إياها على عجل ولما علم المنصور أمر بتقدير قيمة القطعة تقديراً صحيحا وسلم الرجل فيها مائة دينار ذهباً فخرج الرجل وهو لا يصدق ما كان من شدة فرحه .

(٤) أراد أن يجعل من الزاهرة مرتعاً لجنوده من البربر لأن قرطبة والزهراء إذ ذاك كانتا مباءة الناقمين عليه ومهد الحاسدين له ولو أن أتباعه ورجاله نزلوا وسط رعاع قرطبة وعسكر العرب لتربصوا بهم الدوائر وأوقعوا بهم .

(٥) أراد أن يجعل اسم الزاهرة يغطى على مدينة الخليفة حتى إذا جاءت الهدايا والتحف لا تنادى إلا على المنصور ولا تطلب إلا أبواب الزاهرة وبذلك يصبح فى حل من أن يبرم العقود والمحالفات ويفرض الجزى ويرفعها دون علم الخليفة أو مشورته

(٦) إنه ببنائه الزاهرة وهجره الزهراء جعل الأطراف تؤمن

بأن الأمر له وتذعن له بالطاعة وهذا سهل عليه كثيرا من الانتصارات وجذب إليه كثيرا من المودات وأبقى الكثيرين من مخالفيه على عهدهم معه

(٧) لو لم يؤسس هذه المدينة لبقى مهددا بالقتل هو وأشياعه داخلا قصر الخلافة أو خارجا ولسهل على الكائدين له أن ينالوا منه عند الخليفة ويوغروا عليه صدره حتى ينكبه كما نكب غيره من رجالاته

(٨) أراد المنصور أن يبين للناس أن عظمته لا تقل عن عظمة الناصر إن لم تزد عليها فبالغ فى رفع قواعد الزاهرة وجعلها بلدا علميا وتجاريا وسياسيا ومهد بها سبل العيش حتى هجر الناس أوطانهم وأتوا إليها من كل حدب ينسلون

موازنة بين سبب بنائها وسبب بناء الزهراء

مما تقدم ظهر لنا بعض الأسباب التى حملت المنصور على بناء الزاهرة وعرفنا أنها تنم عن حكمة عالية وحزم تام وسياسة مدبرة وإصلاح كبير وتنم عن فخار وظفر ورخاء ورغد ونريد أن نعقد موازنة بين سبب بنائها وسبب بناء الزهراء ونرى أى وجهتى النظر أسمى وأنبل حدث التاريخ أن الخليفة عبد الرحمن الناصر بعد مرور ربع قرن على تبوئه عرش الأندلس ماتت

سرية له وتركت مالا كثيرا فقالت له : (الزهراء) زوجته « اشتهيت لو بليت لى مدينة سميتها باسمى وتكون خاصة لى » فبنى الزهراء من أجل زوجته هذه إذن فالناصر إرضاء للنساء وإشباعا لرغباتهن بنى مدينته أما المنصور فلم تُصْبِهِ زوجة أو تحمله على أن ينفق مال الدولة فى نواحى ميولها وجهات لذاتها ونعيمها على أن الناصر جعل مدينته خاصة بحريمه ، أما المنصور فجعل مدينته عامة لرجاله يديرون بين جدرانها دفة الأمور ويعملون للمجد والغلب . وفى الوقت الذى كان فيه القاضى منذر ابن سعيد يعنف الناصر ويلومه على كثرة البنيان ويقول له

يا بانى الزهراء مستغرقاً أوقاته فيها أما تمهل

لله ما أحسنها رونقاً لو لم تكن زهرتها تذبل

ويتمثل له قوله تعالى « أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع . . » كان صاعد شاعر المنصور يرفع صوته بقوله :

يأيها الملك المنصور من يمن والمبتنى نسبا غير الذى انتسبا

بغزوة فى قلوب الشرك رائعة بين المنايا تناغى السمر والقضبا

أما ترى العين تجرى فوق مرمرها

هوى فيجرى على أخفافها الطربا

أجريتها فطما الزاهى بجريتها

كما طموت فسدت العجم والعربا

تخال فيه جنود الماء زافلة ... مستلئمات تريك الدرع واليلبا(١)
تحفها من فنون الأيك زاهرة ... قد أورقت فضة أو أورقت ذهبا
بديعة الملك ما ينفك ناظرها ... يتلو على السمع منها آية عجبا
لا يحسن الدهر أن ينشي لها مثلا ... ولو تعنت فيها نفسه طلبا

مظاهر الجلال فى الزاهرة

كانت الزاهرة مفعمة بالأموال الطائلة والذهب النضار وكان أهلها فى رخاء ورغد حتى أنه لما قدم على المنصور رسول ملك الروم ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم أمر المنصور أن يُغْرَس فى بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعا صغاراً على قدر ما تسع النيلوفرة ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذى فى البركة وأرسل إلى الرومى فحضر عنده قبل الفجر فى مجلسه السامى بالزاهرة بحيث يشرف على موضع البركة فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم أقبية الذهب والفضة ومناطق الذهب والفضة وبيد خمسمائة أطباق ذهب وبيد خمسمائة أطباق فضة فتعجب الرسول من حسن صورهم وجميل شارتهم ولم يدر ما المراد وحين

---

(١) الترسة أو الدروع من الجلود أو جلود يخرز بعضها إلى بعض تلبس على الرءوس خاصة والفولاذ وخالص الحديد

أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة وبادروا لأخذ الذهب والفضة من النيلوفر وكانوا يجعلون الذهب فى أطباق الفضة والفضة فى أطباق الذهب حتى التقطوا جميع ما فيها وجاءوا به فوضعوه بين يدى المنصور حتى صار كوما بين يديه فتعجب النصرانى من ذلك وأعظمه وطلب المهادنة من المسلمين وذهب مسرعا إلى مرسله وقال له لا تعاد هؤلاء القوم فإنى رأيت الأرض تخدمهم بكنوزها . ولقد كانت الغنائم والأسلاب لا تنقطع عنها يوما واحدا والسبايا وأسرى الحرب لا يقطع سيلهم العمم عنها ولا يجف معينهم ويذكرون فى ذلك أن أكثر جنود المنصور من سبيه وهذا لم يتفق لغيره غالبا وأنه عاد من بعض غزواته فكتب إليه عبد الملك بن شهيد وكان قد تخلف عنه

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا ... يا بنفسى أقيك كل الرزايا
ورسول الإله أسهم فى الفىء ... لمن لم يخب فيه المطايا

فبعث إليه بثلاث جوار من أجمل السبي وكتب معهن وكانت واحدة أجملهن قوله

قد بعثنا بها كشمس النهار ... فى ثلاث من المها أبكار
وامتحنا بعذرة البكر إن كنـ ... ـت ترجى بوادر الإعذار
فاجتهد وابتدر فإنك شيخ ... قد جلا ليله بياض النهار
صانك الله من كلالك فيها ... فمن العار كلة المسمار

فافتضهن من ليلته وكتب له بكرة

قد فضضنا ختام ذاك السوار ... واصطبغنا من النجيع الجارى
وصبرنا على دفاع وحرب ... فلعبنا بالدر أو بالدرارى
وقضى الشيخ ما قضى بحسام ... ذى مضاء عضب الظبا بتار
فاصطنعه فليس يجزيك كفرا ... واتخذه لخلا على الكفار

وفى كتاب الأزهار المنثورة أنه تقدم إلى المنصور واترمار ابن أبى بكر البربرى أحد جنود المغاربة وقد جلس للعرض والتمييز والميدان غاص بالناس فقال له بكلام يضحك الثكلى يا مولاى مالى ولك أمكنى فإنى فى الفحص فقال وما ذاك يا واترمار وأين دارك الواسعة الأقطار فقال أخرجتنى عنها والله نعمتك أعطيتنى من الضياع ما انصب على منها من الأطعمة ما ملأ بيوتى وأخرجنى عنها وأنا بربرى مجوّع حديث عهد بالبؤس أتراني أبعد القمح عنى ليس ذلك من رأيى فتطلق المنصور وقال لله درك من فذعي لعيك فى شكر النعمة أبلغ عندنا وآخذ بقلوبنا من كلام كل أشدق متزيد (١) وبليغ متفنن وأقبل على من حوله من أهل الأندلس . فقال يا أصحابنا هكذا تشكر الأيادى وتستدام النعم لا ما أنتم عليه من الجحد اللازم والتشكى المبرح وأمر له بأفضل المنازل الخالية . وقال الفتح رحمه الله دعيت يوما

---

(١) المتزيد المغالى الكذاب

إلى مدينة المنصور بن أبى عامر وهى منتهى الجمال ومزدهى الصبا والشمال على وهى بنائها وسكنى الحوادث برهة بفنائها فوافيتها والصبح قد ألبسها قميصه والحسن قد شرح بها عويصه وبوسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابه وتوشحت بالأزر الذهبية أثوابه يخترقه جدول كالحسام المسلول وينساب فيه انسياب الأيم فى الطول وضفاته بالأدواح محفوفة والمجلس يروق كالخريدة المزفوفة وفيه يقول على بن أحمد أحد شعرائها وقد حله مع طائفة من وزرائها

قم فاسقنى والرياض لابسة وشيا من النور حاكه القطر

فى مجلس كالسماء لاح به من وجه من قد هويته بدر

والشمس قد عصفرت غلائلها والأرض تندى ثيابها الخضر

والنهر مثل المجر حفت به من الندامى كواكب زهر

فحللت ذلك المجلس وفيه أخدان كأنهم الولدان وهم فى عيش لدن كأنهم فى جنة عدن فأنخت لديهم ركائبى وعقلتها وتقلدت بهم رغائبى واعتقلتها وأقمنا نتنعم بحسنه طول ذلك اليوم ووافى الليل فذدنا عن الجفون طروق النوم وظللنا بليلة كأن الصبح منها مفقود والأغصان تميس كأنها قدود والمجرة تتراءى نهرا والكواكب تخالها فى الجو زهرا والثريا كأنها راحة تشير وعطارد لنا بالطرب بشير فلما كان من الغد وافيت الرئيس أبا عبد الرحمن زائرا فأفضنا فى الحديث إلى أن أفضى بنا إلى ذكر

متنزهنا بالأمس وما لقينا فيه من الأنس فقال لى ما بهجة موضع قد بان قطينه وذهب، وسلب الزمان بهجته وانتهب، وبادفلم يبق إلارسمه، ومحاه الحدثان فما كاد يلوح وسمه، عهدى به عند مافرغ من تشييده وتنوهى فى تنسيقه وتنضيده وقد استدعانى إليه المنصور فى وقت حلت فيه الشمس برج شرفها واكتست فيه الأرض بزخرفها فحللت فيه والدوح تميس معاطفه والنور يخجله قاطفه والمدام تطلع فيه وتغرب وقد حل به قحطان ويعرب وبين يدى المنصور مائة غلام ما يزيد أحدهم على العشر غير أربع ولا يحل غير الفؤاد من مربع وهم يديرون رحيقا خلتها فى كأسها درا وعقيقا فأقمنا والشهب تغازلنا وكأن الأفلاك منازلنا ووهب المنصور فى ذلك اليوم ما يزيد على عشرين ألفا من صلات متصلات وأقطع ضياعا. ثم توجع لذلك العهد وأفصح بما بين ضلوعه من الوجد وقال

سقيا لمنزلة اللوى وكثيبها　　إذ لا أرى زمنا كأزمانى بها

مجالس الأدب فى الزاهرة

كان ملوك الأندلس فى غاية الاحتفال بمجالس الأدب وممن لهم فى ذلك يد بيضاء وقدم ثابتة المنصور بن أبى عامر فإنه فوق كونه شاعراً أديبا قرب الأدباء والشعراء وأحسن جوائزهم

وأفاض عليهم من المال والمتاع ما أغناهم ونقلهم من بين السوقة والعوام إلى الخواص والندمان والوزراء والعمال وبدل عسرهم يسرا وضيقهم رخاء وفرجا حتى جرت نعمه من الشعر سيلا وأطلقت ألسنهم بذكره دون سواه وكان له من كل ذلك مأرب فلم يقرب الأدباء لأدبهم وإنما ليكونوا عدته على مزاحميه ولم يرفع مرتبة الشعراء لحسن شعرهم وإنما ليبلغ بهم غايته وينال بهم مجده. رأى أن الشعراء ينظمون النفوس له فى سلك ويربطون العصاة والجبابرة فى حبل فاستمالهم فمالوا إليه واستدناهم فدنوا منه حتى اجتمعت له كلمة الشرق والغرب وسرى ذكره بهم مسير الشمس ولقد كان لذلك يحلمهم ويقبل نصحهم ولا يسمع فيهم مقالا ولا يقبل غمزا ولا لمزا يدل عليهم ويقبل دلالهم ويبغض من يبغضهم ويقصيه ويقرب من يتقرب منهم ويرضيه ولقد قال يوما للشاعر المشهور أبى عمر يوسف الرمادى كيف ترى حالك معى فقال فوق قدرى ودون قدرك فاطرق المنصور كالغضبان فانسل الرمادى وخرج وقد ندم على ما بدر منه وجعل يقول أخطأت، لا والله ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحق وما كان ضرنى لو قلت له إنى بلغت السماء وتمنطقت بالجوزاء وأنشد

متى يأت هذا الموت لا تلف حاجة

لنفسى إلا قد قضيت قضاءهـــا

لا حول ولا قوة إلا بالله ولما خرج كان فى المجلس من يحسده على مكانه من المنصور فوجد الفرصة فقال : وصل الله لمولانا الظفر والسعد إن هذا الصنف صنف زور وهذيان لايشكرون نعمة ولايرعون إلا ولاذمة كلاب من غلب وأصحاب من أخصب وأعداء من أجدب وحسبك منهم أن الله جل جلاله يقول فيهم « والشعراء يتبعهم الغاوون » والابتعاد منهم أولى من الاقتراب وقد قيل فيهم ما ظنك : « بقوم الصدق محمود إلا منهم » فرفع المنصور رأسه وكان محامى أهل الأدب والشعر وقد اسود وجهه وظهر فيه الغضب المفرط ثم قال مابال أقوام يشيرون فى شىء لم يستشاروا فيه ويسيئون الأدب بالحكم فيما لا يدرون أيرضى أم يسخط وأنت أيها المنبعث للشر دون أن يبعث قد علمنا غرضك فى أهل الأدب والشعر عامة وحسدك لهم لأن الناس كما قال القائل

من رأى الناس له فضـ ـلا عليهم حسدوه

وعرفنا غرضك فى هذا الرجل خاصة ولسنا إن شاء الله نبلغ أحدا غرضه فى أحد ولو بلغنا كم بلغنا فى جانبكم وإنك ضربت فى حديد بارد وأخطأت وجه الصواب فزدت بذلك احتقارا وصغارا وإنى ما أطرقت من كلام الرمادى إنكارا عليه بل رأيت كلاما يجل عن الأقدار الجليلة وتعجبت من تهديه له بسرعة واستنباطه

له على قلة من الإحسان الغامر مالا يستنبطه غيره بالكثير والله لو حكمته فى بيوت الأموال لرأيت أنها لا ترجح ما تكلم به قلبه ذرة وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام فى شخص قبل أن يؤخذ معه فيه ولا تحكموا علينا فى أوليائنا ولو أبصرتم منا التغير عليهم فإننا لا نتغير عليهم بغضا لهم وانحرافا عنهم بل تأديبا وإنكارا فإنا من نريد إبعاده لم نظهر له التغير بل ننبذه مرة واحدة فإن التغير إنما يكون لمن يراد استبقاؤه ولو كنت مائل السمع لكل أحد منكم فى صاحبه لتفرقتم أيدى سبا وجونبت أنا مجانبة الأجرب وإنى قد أطلعتكم على ما فى ضميرى فلا تعدلوا عن مرضاتى وتجنبوا سخطى بما جنيتموه على أنفسكم ثم أمر أن يرد الرمادى وقال له أعد على كلامك فارتاع فقال الأمر على خلاف ما قدرت الثواب أولى بكلامك من العقاب فسكن لتأنيسه وأعاد ما تكلم به فقال المنصور بلغنا أن النعمان بن المنذر حشا فم النابغة بالدر لكلام استملحه منه وقد أمرنا لك بما لا يقصر عن ذلك ما هو أنوه وأحسن عائدة وكتب له بمال وخلع وموضع يتعيش منه ثم رد رأسه إلى المتكلم فى شأن الرمادى وقد كاد يغوص فى الأرض لو وجد لشدة ما حل به مما رأى وسمع وقال والعجب من قوم يقولون الابتعاد من الشعراء أولى من الاقتراب نعم ذلك لمن ليس له مفاخر يريد تخليدها ولا أياد يرغب فى نشرها فأين الذين قيل فيهم .

على مكثريهم رزق من يعتريهم   وعند المقلين السماحة والبذل

وأين الذى قيل فيه

إنما الدنيا أبو دلف   بين مبداه ومحتضره

فاذا ولى أبو دلف   ولت الدنيا على أثره

أما كان فى الجاهلية والإسلام أكرم ممن قيل فيه هذا القول بلى ولكن صحبة الشعراء والإحسان إليهم أحيت غابر ذكرهم وخصتهم بمفاخر عصرهم وغيرهم لم تخلد الأمداح مآثرهم فدثر ذكرهم ودرس فخرهم اه

ولقد كانت مجالس الأدب فى الزاهرة آية الآيات جمالا وروعة وللوزير الجزيرى رحمه الله تعالى فى وصف مجلس للمنصور ابن أبى عامر ما يشهد لذلك قال

وتوسطتها لجة فى قعرها   ستُ السلاحف ماتزال تنقنق

تنساب من فكى هزبر إن يكن   ثبت الجنان فإن فاه أخرق

صاغوه من ند وخاق صفحتى   هاديه محض الدر فهو مخلق

للياسمين تطلع فى عرشه   مثل المليك غداة وهو مطوق

ونضائد من نرجس وبنفسج   وجنى خيرى وورد يعبق

ترنو بسحر عيونها وتكاد من   طرب إليك بلا لسان تنطق

وعلى يمينك سوسنات أطلعت   زهر الربيع فهن حسنا تشرق

فكأنما هى فى اختلاف رقومها   رايات نصرك يوم باسك تخفق

في مجلس جمع السرور لأهله ملك إذا جمعت قناه يفرق
حازت بدولته المغارب رفعة فغدا ليحسدها عليه المشرق

٭٭٭

أما الغمام فشاهد لك أنه لاشك صنوك أو أخوك الأوثق
وافى الصنيع فحين تم تمامه في الصحو أنشأ ودقه يتدفق
وأظنه يحكيك جودا إذ رأى في اليوم بحرك زاخرا يتفهق

ودخل ابن أبي الحباب على المنصور في بعض قصوره والروض قد تفتحت أنواره وتوشجت أنجاده وأغواره وتصرف فيها الدهر متواضعا ووقف بها السعد خاضعا فقال:

لا يوم كاليوم في أيامك الأول بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها في جميع الدهر معتدل طيبا وإن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالي الذي يحتل ساحتها بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل

وذكر ابن سعيد أن ابن العريف النحوي دخل على المنصور وعنده صاعد اللغوي البغدادي فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من أبيات:

فالعامرية تزهى على جميع المباني
وأنت فيها كسيف قد حل في غمدان

فقال صاعد أسعد الله الحاجب الأجل أنا أقول ارتجالا أحسن من هذا فقال له المنصور قل ليظهر صدق دعواك فجعل يقول على البديهة:

يأيها الحاجب المعتلى على كيوان
ومن به قد تناهى فخار كل يمان
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان
انظر إلى النهر فيها ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكرا على ذرا الأغصان
والقضب تلتف سكرا بميس القضبان
والروض يفتر زهوا عن مبسم الأقحوان
والنرجس الغض يرنو بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتا ر نفحة الريحان
فدم مدى الدهر فيها فى غبطة وأمان

فاستحسن المنصور ارتجاله وقال لابن العريف مالك فائدة فى مناقضة من هذا ارتجاله فقال ابن العريف إنما أنطقه وقرب عليه المأخذ إحسانك فقال له صاعد فيخرج من هذا أن قلة إحسانه إليك أسكتتك وبعدت عليك المأخذ فضحك المنصور وقال : غير هذه المنازعة أليق بأدبكما : ودخل الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس على المنصور والمنصور قد اتكأ وارتفق وتحلى بمجلسه ذلك الأوفق فكم أمانيا بمجلسه مسوقة وأحاديث الأمانى به منسوقة فأمره بالنزول عنده فنزل فى جملة الأصحاب والقمر يظهر ويحتجب فى

السحاب والأفق يبدو به أغر ثم يعود مبهما والليل يتراءى منه أشقر ثم يعود أدهما وأبو مروان قد انتشى وجال فى ميدان الأنس ومشى وبرد خاطره قد دبجه السرور ووشى فأقلقه ذلك المغيب والالتياح وأنطقه ذلك السرور والارتياح فقال :

أرى بدر السماء يلوح حينا ... فيبدو ثم يلتحف السحابا
وذلك أنه لما تبدى ... وأبصر وجهك استحيا فغابا
مقال لو نمى عندى إليه ... لراجعنى بذا حقا جوابا

وحكى الوزير الكاتب أبو المغيرة بن حزم قال : نادمت المنصور فى منية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضير وهى جامعة بين روضة وغدير ، فلما تضمخ النهار بزعفران العشى ورفرف غراب الليل الدجوجى وأسبل الليل جنحه وتقلد السماك رمحه وهم النسر بالطيران وعام فى الأفق زورق الزبرقان أوقدنا مصابيح الراح واشتملنا ملاء الارتياح وللدجن فوقنا رواق مضروب فغنتنا عند ذلك جارية تسمى أنس القلوب :

قدم الليل عند سير النهار ... وبدا البدر مثل نصف السوار
فكأن النهار صفحة خد ... وكأن الظلام خط عذار
وكأن الكئوس جامد ماء ... وكأن المدام ذائب نار
نظرى قد جنى على ذنوبا ... كيف مما جنته عينى اعتذارى
يا لقومى تعجبوا من غزال ... جائر فى محبتى وهو جارى
ليت لو كان لى إليه سبيل ... فأقضى من الهوى أوطارى

قال فلما أكملت الغناء أحسست بالمعنى فقلت :

كيف كيف الوصول للأقمار   بين سمر القنا وبيض الشفار

لو علمنا بأن حبك حق   لطلبنا الحيـــاة منك بثار

وإذا ما الكـرام هموا بشىء   خاطروا بالنفوس فى الأخطار

قال فعند ذلك بادر المنصور لحسامه وغلظ فى كلامه وقال لها قولى واصدقى ، إلى من تشيرين بهذا الشوق والحنين فقالت الجارية إن كان الكذب أنجى فالصدق أحرى وأولى والله ما كانت إلا نظرة ولدت فكرة فتكلم الحب على لسانى وبرح الشوق بكتمانى والعفو مضمون لديك عند المقدرة والصفح معلوم منك عند المعذرة ثم بكت فكأن دمعها در تناثر من عقد أو طل تساقط من ورد وأنشدت

أذنبت ذنبا عظيما   فكيف منه اعتذارى

والله قدر هـــذا   ولم يكن باختيارى

والعفو أحسن شىء   يكون عند اقتدار

قال فعند ذلك صرف المنصور وجهه إلى وسل سيف السخط على فقلت أيدك الله تعالى إنما كانت هفوة جرها الفكر وصبوة أيدها النظر وليس للمرء إلا ما قدر له لا ما اختاره وأمله فأطرق المنصور قليلا ثم عفا وصفح ووهب الجارية لى فانصرفت بها إلى منزلى وتكامل سرورى . ومن أعجب ما جرى لصاعد

شاعر المنصور أنه كان بين يدى المنصور ذات يوم فأحضرت إليه وردة فى غير وقتها لم يتم تفتح ورقها فقال فيها صاعد مرتجلا

أتتـــك أبا عامر وردة يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها راسها

فسر بذلك المنصور وكان ابن العريف حاضرا فحسده وجرى إلى مناقضته فقال لابن أبى عامر هذان البيتان لغيره وقد أنشدنيهما بعض البغداديين لنفسه بمصر وهما عندى على ظهر كتاب بخطه فقال له المنصور أرنيه فخرج ابن العريف وركب وحرك دابته حتى أتى مجلس ابن بدر وكان أحسن أهل زمانه بديهة فوصف له ما جرى فقال هذه الأبيات ودس فيها بيتى صاعد

غدوت إلى قصر عباسة وقد جدل النوم حراسها
فألفيتها وهى فى خدرها وقد صرع السكر أنفاسها
فقالت أسار على هجعة فقلت بلى فرمت كاسها
ومدت يديها إلى وردة يحاكى لك الطيب أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت باكمامها راسها
وقالت خف الله لا تفضحـــن فى ابنة عمك عباسها
فوليت عنها على غفلة وما خنت ناسى ولا ناسها

فطار ابن العريف بها وعلقها على ظهر كتاب بخط مصرى ومداد أشقر ودخل على المنصور فلما رآها اشتد غيظه على صاعد

وقال للحاضرين غدا أمتحنه فإن فضحه الامتحان أخرجته من البلاد ولم يبق فى موضع لى عليه سلطان فلما أصبح وجه إليه فأحضر وأحضر جميع الندماء. فدخل بهم إلى مجلس محفل قد أعد فيه طبقا عظيما فيه سقائف مصنوعة من جميع الأزهار ووضع على السقائف لعب من ياسمين فى شكل الجوارى وتحت السقائف بركة ماء وقد ألقى اللآلئ مثل الحصباء وفى البركة حية تسبح فلما دخل صاعد ورأى الطبق قال له المنصور إن هذا يوم إما أن تسعد فيه معنا وإما أن تشقى بالضد عندنا، صف ما ترى فقال بديهته

أبا عامر هل غير جدواك واكف

وهل غير من عاداك فى الأرض خائف

يسوق إليك الدهر كل غريبة وأعجب ما يلقاه عندك واصف

وشائع نَوْر صاغها مر الحيا على حافتيها عبقر ورفارف

ولما تناهى الحسن فيها تقابلت عليها بأنواع الملاهى الوصائف

كمثل الظباء المستكنة كنسا تظللها بالياسمين السقائف

وأعجب منها أنهن نواظر إلى بركة ضمت إليها الطرائف

حصاها اللآلى سابح فى عبابها

من الرقش مسموم الثعابين زاحف

ترى ما تراه العين فى جنباتها

من الوحش حتى بينهن السلاحف

وكان إلى ناحية من تلك السقائف سفينة فيها جارية من النوار تجدف بمجاديف من ذهب لم يرها صاعد فقال له المنصور أحسنت إلا أنك أغفلت ذكر المركب والجارية فقال للوقت

وأعجب منها غادة فى سفينة ... مكللة تصبو إليها المهاتف
إذا راعها موج من الماء تتق ... بسكانها ما أنذرته العواصف
متى كانت الحسناء ربان مركب ... تصرف فى يمنى يديه المجادف ؟
ولم تر عينى فى البلاد حديقة ... تنقلها فى الراحتين الوصائف
ولا غرو أن ساقت معاليك روضة ... وشتها أزاهير الربا والزخارف
فأنت امرؤ لو شئت نقل متالع ... ورضوى ذرتها من سطاك نواسف
إذا قلت قولا أو بدهت بديهة ... فكلنى له إنى لمجدك واصف

فأمر له المنصور بألف دينار ومائة ثوب ورتب له فى كل شهر ثلاثين دينارا وألحقه بالندماء — وقد ذكر ابن بسام أن الأندلسيين دحضوا كتاب صاعد الفصوص الذى ألفه للمنصور ونحابه منحى النوادر للقالى وأنهم نبذوه فى النهر . وذكر المراكشي صاحب المعجب والمقرى وغيرهما هذه الحكاية بروايات أخرى أشهرها أنه دفع الكتاب للغلام بعد تمامه فعبر فزلت قدم الغلام به وهو يعبر نهر قرطبة فسقط هو والكتاب فى النهر ففرح ابن العريف بذلك وقال مرتجلا بحضرة المنصور

قد غاص فى البحر كتاب الفصوص
وهكذا كل ثقيل يغوص

فضحك المنصور والحاضرون ولكن ذلك لم يرع صاعدا فقال : —

قد عاد لمعدنه إنما توجد فى قاع البحار الفصوص

وكان السبب فى تأليفه هذا الكتاب أن المنصور أراه كتاب النوادر للقالى ، فأكد له صاعد أن فى قدرته أن يؤلف كتاباً خيراً منه ، وقال له إن أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتاباً أرفع منه وأجل لا أورد فيه خبراً مما أورده أبو على فلما أذن له المنصور بذلك جلس بجامع الزاهرة يملى كتابه الفصوص حتى أكمله . قالوا فتتبعه أدباء ذلك الوقت ، فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ولا خبر ثبت لديهم — ولقد أحسن ابن بسام كل الإحسان وتوخى شرعة الإنصاف والعدالة فى تعليقه على هذا الخبر حين قال : ما أظن أحداً يجترئ على مثل هذا ، وإنما صاعد اشترط ألا يأتى بالغريب غير المشهور وأعانهم على نفسه بما كان يتنقف به من الكذب

وحكوا أن صاعدا اللغوى دخل على المنصور يوم عيد وعليه ثياب جدد وخف جديد فمشى على حافة البركة لازدحام الحاضرين فى الصف فزلق فسقط فى الماء فضحك المنصور وأمر بإخراجه وقد كاد البرد يأتى عليه فخلع عليه وأدنى مجلسه ، وقال له : هل حضرك شىء فقال :

شيئان كانا فى الزمان عجيبة ضرط ابن وهب ثم وقعة صاعد

فاستبرد ما أتى به أبو مروان الكاتب الجزيرى ، وقال هلا قلت :

سروري بغرتك المشرقة وديمة راحتك المغدقة
ثنانى نشوان حتى غرقـ ـت فى لجة البركة المطبقة
لئن ظل عبدك فيها الغريق لجودك من قبلها أغرقه

فقال له المنصور لله درك يا أبا مروان إن قسناك بأهل بغداد فضلتهم فبمن نقيسك بعدهم . ولم تكن كل المجالس عندهم مجالس جد فكثيراً ما كان يتخللها المزاح البرىء والهزل المعجب وكثيرا ما كانت تكون مجالس طرب ولعب ومجانة ، ولم يكن المنصور فيها إلا متفرجا فقد أجمعوا أنه لم يكن سكيراً وإنما كان يبيح السكر فى حضرته ولم يكن ماجناً راقصا وإنما كان يبيح كل ذلك فى مجلسه من باب التسلية واكتساب الميول علما منه أن الناس مشارب ومذاهب ، فهذا يستهويه مالا يستهوى ذلك ، ويعجبه مالا يعجب الآخر وهذا يميل إلى مجالس الجد وذاك يفدى بنفسه وأهله ساعة أنس ولهو . أخذ المنصور بعد دراسة أخلاق الناس شراك محبتهم له من أنفسهم وفتل فى الذروة والغارب حتى لان له الصعب وسال الصخر . ولقد كان صاعد اللغوى كثيراً ما يمدح بلاد العراق بمجلس المنصور ويصفها ويقرظها فكتب الوزير

عبد الملك بن شهيد إلى المنصور فى يوم برد بهذه الأبيات

أما ترى برد يومنا هذا ... صيرنا للكمون أفذاذا

قد فطرت صحة الكبود به ... حتى لكادت تعود أفلاذا

فادع بنا للشمول مصطليا ... نغذ سيراً إليك إغذاذا

وادع المسمى بها وصاحبه ... تدع نبيلا وتدع أستاذا

ولا نبالى أبا العلاء زها ... بخمر قطربل وكلوذا

مادام فى أرملاط مشربنا ... دع دير عمى وطيرنا باذا

وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالحرم فأمر بإحضار من جرى رسمه من الوزراء والندماء ، وأحضر ابن شهيد فى محفة لنقرس كان يعتاده وأخذوا فى شأنهم فمر لهم يوم لم يشهدوا مثله ، ووقت لم يعهدوا نظيره ، وطما الطرب وسما بهم حتى تهايج القوم ورقصوا وجعلوا يرقصون بالنوبة حتى انتهى الدور إلى ابن شهيد . فأقامه الوزير أبو عبد الله بن عباس فجعل يرقص وهو متوكئ عليه ويومئ إلى المنصور ويرتجل وقد غلبه السكر

هاك شيخا قاده السكر لكا ... قام فى رقصته مستهلكا

لم يطق يرقصها مستثبتا ... فانثنى يرقصها مستمسكا

عاقه عن هزها منفرداً ... نقرس أخنى عليه فاتكى

من وزير فيهم رقاصة ... قام للسكر يناغى ملكا

أنا لو كنت كما تعرفنى ... قمت إجلالا على رأسى لكا

قهقه الابريق منى ضاحكا ورأى رعشة رجلى فبكى

قالوا وكان حاضرهم ذلك اليوم رجل بغدادى حسن النادرة سريعها ، فلما رأى ابن شهيد يرقص قائما من ألم المرض الذى كان يمنعه من الحركة قال : لله درك ياوزير ترقص بالقائمة وتصلى بالقاعدة . فضحك المنصور وأمر للجميع بجائزة

العلم بين جدران الزاهرة

كان محمد بن أبى عامر يشجع العلم إرضاء للعلماء ، لما رأى من أنهم ذوو الكلمة المطاعة فى العامة وأصحاب مقاليدها فجعل إكرامهم آلة يجمع بها كلمة العامة له ويشترى بها قلوبهم ، ولما كان علماء الدين إذ ذاك كل شىء فقد طارد الفلسفة وعلوم المنطق والعقل ، وأحرق الكثير من كتبها بيده إرضاء لهم وطاعة لأمرهم ، وشجع علوم الدين من تفسير وفقه وحديث وقراءات حتى كان هو زعيما فى ذلك ، فإن الناس لم يزالوا يتداولون القراءات وروايتها ، إلى أن كتبت العلوم ودونت ، فكتبت فيما كتب من العلوم ، وصارت صناعة مخصوصة وعلما مفرداً وتناقله الناس بالمشرق والأندلس قرنا بعد قرن إلى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد من موالى العامريين وكان معتنيا بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور واجتهد فى

تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته فكان سهمه في ذلك وافراً ، واختص مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية فنفقت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموماً وبالقراءات خصوصاً فظهر لعهده أبو عمر الدانى وبلغ الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها وانتهت إلى روايته أسانيدها وتعددت تآليفه فيها وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها

العدل فى الزاهرة

كما قام ملك محمد بن أبى عامر على العدل قام بناء الزاهرة وقد استمر العدل حالاً فى فناء المنصور كل أيامه ولهذا كانت دولته ممتعة بقوتها دائماً يعمل الناس فيها بسلام وينامون فى هدوء وأمان ومن أمثلة عدله ما ورد من أن رجلا من العامة وقف عليه بمجلسه ونادى يا ناصر الحق إن لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك ـ وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة وكان له فضل محل عنده ـ وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت فقال المنصور اذكر مظلمتك فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما فقطعها من غير نصف فقال المنصور ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية ثم نظر إلى الصقلبى (صاحب الدرقة) وقد ذهل عقله

وقال له ادفع الدرقة إلى فلان وساو خصمك فى مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك ففعل ومثل بين يديه ثم قال لصاحب شرطته الخاص به خذ بيد هذا الفاسق وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه ففعل ذلك وعاد الرجل إليه شاكراً فقال له المنصور قد انتصفت أنت اذهب لسبيلك وبقى انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى وتناول الصقلبى بأنواع المذلة وأبعده عن الخدمة

ومن ذلك قصة فتاه الكبير المعروف بالبورقى مع التاجر المغربى فإنهما تنازعا فى خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور وهو يومئذ أكبر خدم المنصور وإليه أمر داره وحرمه فدافع الحاكم وظن أن جاهه يمنع من إحلافه فصرخ التاجر بالمنصور فى طريقه إلى الجامع متظلما من الفتى فوكل به من الوقت من حمله إلى الحاكم فأنصفه منه وسخط عليه المنصور وقبض نعمته منه ونفاه ومن ذلك قصة محمد فصّاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه فإن المنصور احتاجه يوما للفصد وكان كثير التعهد له فأنفذ رسوله إلى محمد فألفاه الرسول محبوسا فى سجن القاضى محمد بن زرب لحيف ظهر منه على امرأته قدر أن سبيله من الخدمة يحميه من العقوبة فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن يلازمه إلى أن يفرغ من عمله عنده ثم يرده إلى محبسه

ففعل ذلك على ما رسمه وذهب القاصد إلى شكوى ماناله فقطع
عليه المنصور وقال له يامحمد إنه القاضى وهو فى عدله ولو أخذنى
بالحق ما أطقت الامتناع منه عد إلى محبسك واعترف بالحق
فهو الذى يطلقك فانكسر الحاجم وزالت عنه ريح العناية
وبلغت قصته القاضى فصالحه مع زوجته شدة فى أحكامه

قوة الجيش ونظامه فى الزاهرة

أنشأ المنصور جيشا مدربا منظما لا ترى بين صفوفه نعرة
العصبية ولا تخاذل الحزبية وزوده بالذخائر التامة وبنى الأساطيل
فى البحار حتى كان لجيشه هيبته التامة فلم ينكب فى حرب قط وما
انصرف عن موطن إلا قاهرا غالبا على كثرة مازاول من حروب
ومارس من أعداء وواجه من أمم وإنها لخاصة للمنصور مانحسب
أن أحدا من ملوك الإسلام شاركه فيها وقد انتهت هيبته وضبطه
للجند واستخدام ذكور الرجال وقوام الملك إلى غاية لم يصلها
ملك قبله فكانت مواقفهم فى الميدان على احتفاله مثلا فى الإطراق
حتى إن الخيل لتتمثل إطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة
ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سله بعض الجند بأقصى
الميدان لهزل أو جد بحيث ظن أن لحظ المنصور لايناله فقال على
بشاهر السيف فمثل بين يديه لوقته فقال ما حملك على أن شهرت

سيفك فى مكان لا يشهر فيه إلا عن إذن فقال إنى أشرت به إلى
صاحبى معمدا فذلق من غمده فقال إن مثل هذا لا يسوغ بالدعوى
وأمر به فضربت عنقه بسيفه وطيف برأسه ونودى عليه بذنبه .
وكان لجيش المنصور فى كل غزوة من غزواته المنيفة على الخمسين
مفتخر من المفاخر الإسلامية فمنها أن بعض الأجناد نسى رايته
مركوزة على جبل مقرب إحدى مدن الروم فأقامت مدة لا يعرف
الروم ما وراءها بعد رحيل العساكر وهذا بلا خفاء مما يفخر به
أهل التوحيد على أهل التثليث لأنهم لما أشرب قلوبهم خوف
شرذمة المنصور وحزبه وعلم كل من ملوكهم أنه لا طاقة له بحربه
لجئوا إلى الفرار والتحصن بالمعاقل والقلاع ولم يحصل منهم إلا
الإشراف من بعد . وكان المنصور بن أبى عامر يزدرع كل سنة ألف
مدى من الشعير لدوابه الخاصة به وإنه كان إذا قدم من غزوة
من غزواته لا يحل عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيعلم
ما مات منها وما عاش وصاحب البناء لما وهى من أسواره ودوره
ومبانيه ذلك لأن الخيل حصون الغارة والمبانى حصون الدفاع
وكان يصنع فى كل عام اثنى عشر ألف ترس عامرية لقصر الزاهرة

نظام المالية فى الزاهرة

كانت الزاهرة غنية بجبايتها وبما كان يساق إليها من غنائم قد أزهرت فيها الزراعة والصناعة والتجارة وفاضت خزائنها بالأموال حتى تغالى الناس فى تجهيز بناتهم بالثياب والحلى وذلك لعاملين الأول الرواج التام والثانى رخص أثمان بنات الأفرنج بسبب السبي وكان المنصور يقظا فى كشف تصرفات عماله يحاسبهم على كل تصرف بما يجب له من حساب فيكافىء المحسن ويعاقب المسيء ومن ذلك أن فتى من أهل الأدب قد رقت حاله فى الطلب فتعلق بكتاب العمل واختلف إلى الخزانة مدة حتى قلد بعض الأعمال فاستهلك كثيرا من المال فلما ضم إلى الحساب أبرز عليه ثلاثة آلاف دينار فرفع خبره إلى المنصور فأمر بإحضاره فلما مثل بين يديه ولزم الإقرار بما برز عليه قال له يا فاسق ما الذى جرأك على مال السلطان تنتهبه فقال قضاء غلب على الرأى وفقر أفسد الأمانة فقال المنصور والله لأجعلنك نكالا لغيرك ليحضر كبل وحداد فأحضر فكبل الفتى وقال احملوه إلى السجن وأمر الضابط بامتحانه والشدة عليه فلما قام أنشا يقول

أواه أوّاه وكم ذا أرى   أكثر من تكرار أوّاه
ما لامرىء حول ولا قوة   الحول والقوة لله

فقال المنصور ردوه فلما رد قال أتمثلت أم قلت قال بل قلت فقال خلوا عنه كبله فلما حل عنه أنشأ يقول

أما ترى عفو أبى عامر   لا بد أن يُتْبِعهُ مَنَّهْ
كذلك الله إذا ما عفا   عن عبده أدخله الجنة

فأمر بإطلاقه وسوغه ذلك المال وأبرأه من التبعة فيه

موت المنصور وسقوط الزاهرة

ولقد كانت الزاهرة أيام المنصور بهجة الدنيا وزهرتها حتى أنه كان فى قصره بها ذات يوم فتأمل محاسنه ونظر إلى مياهه المطردة وأنصت لأطياره المغردة وملأ عينه من الذى حواه من حسن وجمال والتفت فى الزاهرة من اليمين إلى الشمال فانحدرت دموعه وتجهم وقال ويلك يا زاهرة فليت شعرى من الخائن الذى يكون خرابك على يديه عن قريب فقال له بعض خاصته ماهذا الكلام الذى ماسمعناه من مولانا قط وما هذا الفكر الردىء الذى لا يليق بمثله شغل البال فقال والله لترون ما قلت وكأنى بمحاسن الزاهرة قد نحيت وبرسومها قد غيرت وبمبانيها قد هدمت ومحيت وبخزائنها قد نهبت وبساحاتها قد أضرمت بنار الفتنة وألهبت . ثم خرج المنصور لآخر غزواته وقد مرض المرض الذى مات فيه وواصل شن الغارات وقويت عليه العلة

فاتخذ له سرير خشب ووطئ عليه ما يقعد عليه وجعلت عليه ستارة وكان يحمل على أعناق الرجال والعساكر تحف به وكان قد هجر الأطباء فى تلك العلة لاختلافهم فيها وأيقن بالموت وكان يقول إن زمانى يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما أصبح فيهم أسوأ حالة منى ولعله يعنى من حضر معه تلك الغزاة وإلا فعساكر الأندلس ذلك الزمان أكثر من ذلك العدد ولما أيقن بالوفاة وكان إذ ذاك بمدينة سالم أوصى ابنه عبد الملك وجماعته وخلا بولده وكان يكرر وصايته وكلما أراد أن ينصرف يرده وعبد الملك يبكى وهو ينكر عليه بكاءه ويقول وهذا من أول العجز وأمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر وخرج عبد الملك إلى قرطبة ومعه القاضى أبو ذكوان فدخلها أول شوال وسكن الإرجاف بموت والده وعرف الخليفة كيف تركه ووجد المنصور خفة فأحضر جماعة بين يديه وهو كالخيال لا يبين الكلام وأكثر كلامه بالإشارة كالمسلم المودع وخرجوا من عنده فكان آخر العهد به ومات لثلاث بقين من شهر رمضان وأوصى أن يدفن حيث يقبض فدفن فى قصره بمدينة سالم . حكى شجاع مولى المستعين بن هود عن نفسه فقال لما توجهت إلى أدفونش وجدته فى مدينة سالم وقد نصب على قبر المنصور بن أبى عامر سريره وامرأته متكئة إلى جانبه فقال لى يا شجاع أما ترانى قد ملكت بلاد المسلمين وجلست على قبر

ملكهم قال فحملتني الغيرة أن قلت له لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه ما سمع منك ما يكره سماعه ولا استقر بك قرار فهم بى فحالت امرأته بينى وبينه وقالت له صدقك فيما قال أيفخر مثلك بمثل هذا . وهكذا كان محمد فخر المسلمين حيا وميتا

اضطرب العسكر بعده وتلوم ولده أياما وفارقه بعض العسكر إلى الخليفة هشام وقفل هو إلى قرطبة فيمن بقى معه ولبس فتيان المنصور المسوح والأكسية بعد الوشى والحبر والخز وقام ولده عبد الملك المظفر بالأمر وأجراه هشام الخليفة على عادة أبيه وخلع عليه وكتب السجل بولايته الحجابة وكان الفتيان قد اضطربوا فقوم المائل وأصلح الفاسد وجرت الأمور على السداد وانشرحت الصدور بما شرع فيه من عمارة البلاد فكان أسعد مولود ولد فى الأندلس ومكث فى الأمر سبع سنوات ومات مسموماً بيد أخيه عبد الرحمن الذى صنع له الموت فى تفاحة شقها بسكين مسموم من جانب وناول أخاه الشق الذى فى جهة السم وأكل أمامه النصف الآخر مما جعل أخاه يأكل وهو مطمئن ولما مات ولى عبد الرحمن هذا بعده وهو الملقب بسنكول وسلك طريقا غير طريق أبيه وأخيه وأخذ فى المجون وشرب الخمور وغير ذلك ثم دس إلى المؤيد من خوفه منه إن لم يجعله ولى عهده ففعل ذلك فحقد عليه الناس وبنو أمية وأبغضوه وتحركوا فى أمره إلى أن غزا شاتية وأوغل فى بلاد الجلالقة

ولم يقدم ملكها على لقائه وتحصن منه فى رءوس الجبال ولم يقدر عبد الرحمن على اتباعه لزيادة الأنهار وكثرة الثلوج فأثخن فى البلاد التى وطئها وخرج موفورا فبلغه فى طريقه ظهور محمد ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر بقرطبة واستيلاؤه عليها وأخذه المؤيد أسيرا فتفرق عنه عسكره ولم يبق معه إلا حاشيته فسار إلى قرطبة ليتلافى ذلك الخطب فخرج إليه عسكر محمد ابن هشام فقتلوه وحملوا رأسه إلى قرطبة فطافوا به سنة ٣٩٩ ثم صلبوه وبذا انقرضت دولة آل عامر ولم يعد منهم آمر

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

وخربت الزاهرة ومضت كأمس الدابر وصار ما كان فيها فى كل دار وبيع بعض ما نهب منها ببغداد وغيرها من البلاد الشرقية

نتائج حكم المنصور

كان الحاجب المنصور قائداً عظيما ومصلحا كبيراً وشهما شجاعا قوى النفس ذا عقل ورأى وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين فاستمال الجند والرعية وأحسن إليهم وكان عالما شاعرا مولعا بتعضيد العلوم والفنون فأنشأ دور العلم وبالغ فى الإنفاق عليها وكان يزور المدارس والمساجد ويجالس الطلاب ويمنح

المكافآت النفيسة لمن يستحقها منهم ويكثر من مجالسة العلماء ومناظرتهم وكان له فى كل أسبوع مجلس يؤمه العلماء والأدباء للمناظرة والبحث فى حضرته وكان يستصحبهم فى غزواته لأن شغف البحث والمناظرة كان يلازمه حتى فى معسكره ، وكان مشغوفا بالغزو لايقعده عنه شيء فكان يغزو فى الربيع والصيف من كل عام وقد بلغت غزواته اثنتين وخمسين وكان قوى الذاكرة حتى إنه كان يعرف جميع عساكره بالاسم أو كان على الأقل يذكر أسماء من امتازوا بالشجاعة ويدعوهم إلى مائدته فى الولائم الكبيرة التى اعتاد أن يقيمها فى عسكره عقب كل انتصار . وكان كلفا بتشييد الأبنية فابتنى الزاهرة والمسجد الجامع بقرطبة وأنشأ قنطرة كبيرة على نهر الوادى الكبير لتجلب مياه النهر إليها وأنشأ قنطرة أخرى على نهر شنيل . وكان مهيب الجانب يخشى بأسه المسلمون والنصارى معاً ومن آثار هيبته أن أوفد له بازيل الثانى امبراطور القسطنطينية سفراء لمحالفته ولم تبلغ أمم الشمال الأسبانية قط مثل ما بلغت فى عهده من التفرق والوهن . وقد قدر الأسبان المنصور حق قدره وشادوا بذكره واتفقوا على إكباره ومدحه وقال فى وصفه المؤرخ ما سديه: (كان سياسيا كبيرا وقائدا عظيما فقد أخمد نار الثورات التى كانت تعصف بالمملكة واكتسب محبة الشعب بجميع طبقاته وبرز فى شهرته وهيبته على أكبر القواد بما اجتمع فى أحكامه من الصرامة واللين والقصاص والعفو

وكان يهدم المدن التى تقاوم جيوشه ويبيدها ولكنه لم يسمح قط لجنده بأن تسيء معاملة مدينة سلمت طوعا اهـ. وحدث شعلة قال قلت للمنصور ليلة أطال سهره فيها قد أفرط مولانا فى السهر وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب فقال يا شعلة : الملك لا ينام إذا نامت الرعية ولو استوفيت نومى لما كان فى دور هذا البلد العظيم عين نائمة - ولا عجب فقد أطال المنصور سهره حتى نامت الرعية وأحسن جزاء العاملين حتى سهروا على ابتغاء ثوابه حكى أنه أصبح صبيحة يوم راحة للخدم فى مطر وابل غب أيام مثله فقال هذا يوم لا عهد بمثله ولا حيلة للمواظبين لقصدنا فى مكابدته فليت شعرى هل شذ أحد منهم عن التقرير فأغرب فى البكور اخرج وتأمل يقوله لحاجبه - فخرج وعاد إليه ضاحكا وقال يامولاى على الباب ثلاثة من البرابرة بحال من البلل إنما توصف بالمشاهدة فقال أوصلهم إلى وعجل فدخلوا عليه فى حال الملاح بللا وندأوة فضحك إليهم وأدنى مجالسهم وقال خبرونى كيف جئتم وعلى أى حال وصلتم وقد استكان كل ذى روح فى كنه ولاذ كل طائر بوكره فقال له واحد منهم يامولانا ليس كل التجار قعد عن سوقه وإذا عذر التجار على طلب الربح بالفلوس فنحن أعذر بإدراكها بالبدر ، ومن غير رءوس الأموال ، وهم يتناوبون الأسواق على أقدامهم ويذيلون فى قصدها ثيابهم ونحن نأتيك على خيلك ونذيل على

صهواتها ملابسك ، ونجعل الفضل فى قصدك مضمونا إذ جعله أولئك طمعا ورجاء ، فترى لنا أن نجلس عن سوقنا هذه فضحك المنصور ودعا بالكسا والصلات فدفعت لهم وانصرفوا مسرورين بقدوتهم ، ويتحدث المنصور عن نفسه فيقول فى شعر

رميت بنفسى هول كل عظيمة   وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبى إلا جنان مشيع   وأسمر خطى وأبيض باتر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة   وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنيانا ولكن زيادة   على ما بنى عبد المليك وعامر
رفعنا العوالى بالعوالى مثلها   وأورثناها فى القديم معافر

ويتحدث دوزى عنه فيقول : « وعلى الجملة إذا وجب أن نستنكر الوسائل التى استخدمها المنصور فى اغتصاب السلطة فن الواجب أيضا أن نعترف بأنه استخدمها فى سبيل الخير ولئن خلقه القدر على أريكة العرش فقد لا نسرف فى لومه وقد يعتبر عندئذ من أعظم الملوك الذين عرفهم التاريخ . ولكن خلق فى الغربة واضطر لتحقيق أطماعه أن يشق لنفسه طريقا تحفه آلاف الصعاب . ومن الأسف أنه من أجل تذليلها راعى شرعية الوساطة . لقد كان رجلا عظيما من وجوه كثيرة ولكن يستحيل علينا متى رجعنا إلى مبادىء الأخلاق الخالدة أن نحبه ومن الصعب أن نعجب به اه » :

هكذا يقول دوزى ولكن من يرجع إلى أعمال المنصور وخطواته الى العلا لا يجده خرق سياج الأخلاق ولا عق الفضيلة إنما كان

غادرا كأبى جعفر والسفاح وخلفاء بنى العباس ولا كالداخل
والناصر من خلفاء بنى أمية بالأندلس ولا كعمرو بن العاص فى
فى روغه ومكره لم يكن مكيافيليا فى مذهبه كغيره من الملوك
سيما بجده وجده وما نراه من نكبته المصحفى وغالبا وغيرهما ومن
حجره على هشام حتى أصبح لا يدبر أمرا ، فذلك لأن المصحفى
قتل المغيرة عم هشام ظلما وعدوانا وعاث فى الأرض فسادا
وعتا واستكبر وطغى وبغى . وغالب حسده فضله ونباهة شأنه
وجرد عليه سيفه وأهانه وكلّمه مع أنه لم يثبت أن المنصور قتله أما
حجره على هشام المؤيد فكان أمرا لابد منه صيانة للملك وحفظا
لكيان الدولة وإبقاء عليها إذ كان هشام فتى صغيرا ميالا بطبيعته
إلى اللهو والدعة ولم تكن له أية صفة سامية مما يؤهل عظماء الرجال
لأن يكونوا فاتحين أو مصلحين فكان يلزم القصر أو الحدائق
ويقضى أيامه فى لهو ومسرة محاطا بالخصيان وآلات الطرب
والناس إذا ألفوا الترف وغضارة العيش يصيرون عيالا على
غيرهم ومن جملة الولدان والنساء المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط
عصبيتهم بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبّسون على
الناس فى الشارة والزى وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها
وهم فى الأكثر أجبن من النساء فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا

مدافعته فيضطر صاحب الدولة حينئذ إلى الاستسلام للأعداء وفى هذا ضياع لدولته . ولما كان هشام كذلك كان لابد للمنصور من أن يحجر عليه والنفوس إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم حل بها التكاسل وضعف التناسل وقصر الأمل وعجزت عن المدافعة عن نفسها والرئيس إذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه وإذا أراد بعد أن يخرج من هذه الربقة ويتذوق طعم الملك لا يجد لديه عزما يصل به إلى هـذه الغاية لأنه لا يكون قد وصل إلى هذه الحال إلا بسبب الترف والانغماس فى النعيم الذى أنساه عهد الرجولة وجعله يألف أخلاق الجوارى والغلمان فلا ينزع إلى الرياسة ولا يعرف استبداد المتغلب ويقنع بالأبهة والتفنن فى فى اللذات وأنواع الترف . فلو أن المنصور ترك هشاما بلا حجر لذهبت دولة المسلمين فى الغرب ولأكل الفرنج لحمها ودقوا العظم ولكن كان لهمة ابن أبى عامر وعصبيته أثر فى إبقاء الدولة وحفظها من الموت على أن النفوس التواقة إلى العلا إذا بلغت رتبة طلبت ما فوقها فإذا بلغت رتبة السودد والاتباع ووجدت السبيل إلى التغلب والقهر لا تتركه لأنه مطلوب النفس . هكذا كانت نفس ابن أبى عامر على أنه لم يحاول انتزاع الملك ظاهرا مع أن هذا كان مستطاعا له وإنما انتزع ثمرته من الأمر والنهى والحل والعقد وكان

لا يفتا يعترف بأنه متصرف عن سلطانه منفذ لأحكامه يتجافى
عن سمات الملك وشاراته وألقابه ويبعد نفسه عن الريبة جهده
ولم يتسلط عليه خلق الكبر والأنفة الذى هو من الطبيعة الحيوانية
فلم يأنف من أن يكون له شريك فى الملك هو هشام المؤيد بل قنع
بأن يكون حاكما باسمه ولم يكن له خلق التكبر الذى فى طباع
البشر . ومع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم فإنه قنع من
الانفراد بما تقتضيه المصلحة ويستوجبه نظام الملك غير موقع
بالبيت المالك مثلة ولا مسيمهم خسفا وبالجملة فقد ابتعثت أيامه
دولة المسلمين فى الأندلس من مرقدها وأجرت فيها ماء الحياة
أعواما حتى تأذن الله بموته فماتت بموته البلاد وتتلخص أحوال
البلاد فى عهده فيما يأتى

١ — تكون شعب أندلسى نسى أفراده أحسابهم وأنسابهم
وزالت رياسة القبائل واندثر هذا النوع الحكومى المقام على
مبادئ الديمقراطية العربية الأولى وغاب من أفق السياسة نفوذ
الأمراء وأشرقت شمس الملكية المطلقة

٢ — انتقل النفوذ السياسى إلى الجيش وأغلبية جنده وقواده
من البربر أو المسيحيين ولضعة أحساب هؤلاء لم يحفل القوم
بهم ولم يحترموهم وكرههم الشعب لما كثر اعتداؤهم على الأرواح

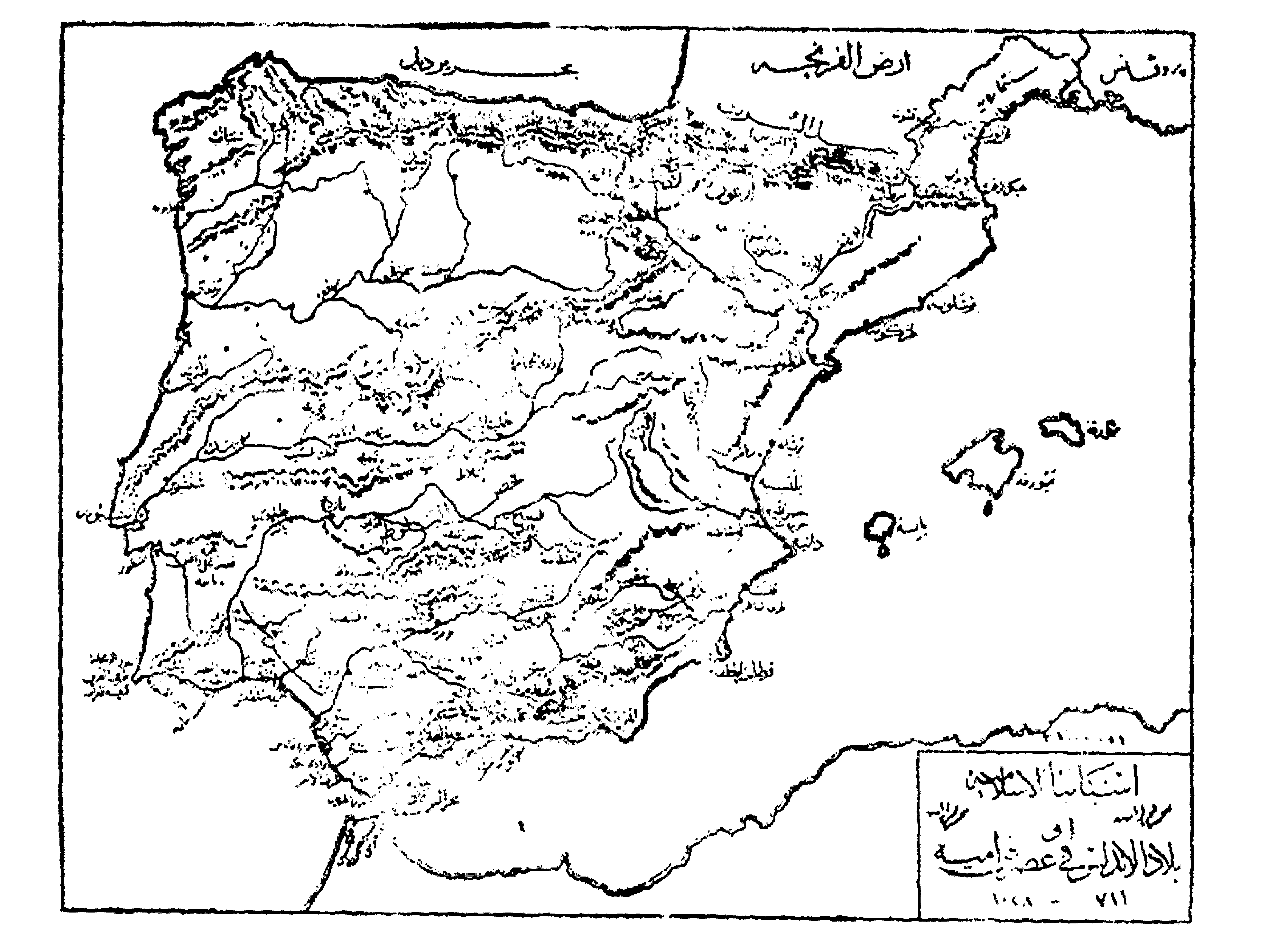
٣ — اغتنى أفراد الطبقة الوسطى نتيجة اشتغالهم بالصناعة
والتجارة فبدأ تنازع الطبقات بعضها مع بعض .

٤ — قامت بين القوم نظرية حرية التفكير أثرا لدراستهم الفلسفة اليونانيه والعلوم الرياضية فبحثوا فى أمر النظم الحكومية والعقائد الدينية ونظروا فيما كان من أمر الشيعة والمعتزلة والسنيين وعبثا حاول قادة الفكر والدين التوفيق بين تلك المذاهب إلى أن قادت هذه التطورات قرطبة إلى ثورة أسقطت بنى عامر وتبع سقوطها سقوط دولة بنى أمية بالأندلس والملك والبقاء لله

تم بحمد الله

فى شهر صفر سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف هجرية

فهرس


اسبانيا الاسلامية
او
بلاد الاندلس في عصر بني امية
٧١١ - ١٠٣١
ارض الفرنجة
بحر برديل
بروفنس
ميورقة
يابسة
بلنسية